ألجرنون بلاكوود

الويندجو

رواية

ترجمة: أحمد صلاح المهدي



الكتـــــــاب: الويندیجو

المـــؤلـــــف: ألجرنون بلاكوود

تصميم الغـــلاف: أحمد الصباغ

المـــترجـــــم: أحمد صلاح المهدي

المراجعة اللغــوية: جهاد صلاح

رقـــم الإيـــداع: 2017 / 26688

الترقيـم الدولـــي: 2 - 163 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله



العنوان: 10 ش هدى شعراوي، وسط البلد، القاهرة

هاتف: 0223909119 - موبايل: 01001631173

الموقع الالكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الالكتروني: info@ibda3-tp.com

ألجرنون بلاكوود

الويندیجو

ترجمة أحمد صلاح المهدي



الإهداء

إلى روح الكاتب ألجرنون بلاكوود،

وإلى محبي أدب الرعب في الوطن العربي.

مقدمة المترجم

يعد الكاتب الإنجليزي ألجرنون هنري بلاكوود (14 مارس 1869 – 10 ديسمبر 1951) الذي عاش في أواخر العصر الفيكتوري، واحدًا من آباء أدب الرعب أو الخيال الغريب أو الماورائيات بأعماله التي كتبها على مدار مسيرته الأدبية التي استمرت لأكثر من أربعة عقود، نشر خلالها مئات القصص القصيرة وعشرات الروايات التي ألهمت العديد من كتاب أدب الرعب المعاصرين مثل لافكرافت، وآرثر ماكين، وتولكين، وقد عدّه لافكرافت في كتابه "الرعب الماورائي في الأدب" أنه سيد الرعب لا منازع، وقال إن كتاباته تقع في أعمق نقطة في اللاوعي وتتجاوز الحاجز بين الواقع والخيال.

ولد بلاكوود سنة 1869 في ريف لندن لأبوين ثريين وفرا له حياة رغدة وتعليمًا خاصًا، وفرضا عليه بعض التعاليم

الدينية الصارمة، إلا أن ألجرنون الصغير تمرد على ذلك، وقام بالترحال، مستكشفًا الفلسفة الشرقية، باحثًا عن طريقه الخاص في الحياة دون وصاية أو توجيه من أحد. ترك جامعة إدنبرة في اسكتلندا، وهي واحدة من أعرق الجامعات في العالم بعد عام واحد من الدراسة فيها، وسافر إلى عدة بلدان مستكشفًا أفكار وثقافات مختلفة قبل أن ينتقل إلى كندا ليؤسس مزرعة للأبقار وهناك أيضًا قام بإدارة فندق لمدة ستة أشهر، ثم انتقل للعمل في مناجم الذهب في ألاسكا قبل أن ينتقل إلى نيويورك، وعمل مراسلاً صحفيًا لجريدة نيويورك تايمز، كما عمل سكرتيرًا خاصًا ورجل أعمال وعاملاً في البار ومعلمًا للعزف على آلة الكمان.

في أواخر الثلاثينيات من عمره عاد بلاكوود إلى إنجلترا وبدأ في كتابة قصص الرعب القصيرة للجرائد، ونجحت أعماله للغاية واكتسبت شعبية كبيرة، وكان بلاكوود يقوم برواية أعماله بنفسه في الراديو أو التلفزيون، ونشر عشر مجموعات قصصية قصيرة على الأقل، وأربع عشرة رواية، والعديد من قصص الأطفال والمسرحيات، ومنها العديد من القصص التي لم تنشر أو لم يسعَ هو لنشرها.

كان بلاكوود محبًا للطبيعة، وعاش حياة مستقلة دون أن

يتزوج أبدًا، وكان يفضل البقاء وحيدًا، كما أنه لم يدرس الفلسفة الشرقية على سبيل الفضول بل كان مؤمنًا بها أشد الإيمان، وكان يعتقد بوجود قوى الطبيعة الخارقة والعوالَم الماورائية والكيانات القديمة، فنشأ لديه ولع بالطب وعلم النفس والفلسفة الهندوسية وتعمق في دراسة الأمور الروحانية والسحر والتنجيم وعلوم ما وراء الطبيعة والقدرات الروحية الخارقة الكامنة لدى البشر. ثم اشترك في جمعية سرية تدعى الفجر الذهبي تخصصت في الروحانيات، وألهمه اشتراكه فيها روايته "الوتر"، فقد كان يستمد إلهامه من خبراته الشخصية ورحلاته وحياته في عدد من الدول المختلفة، فاستوحى روايته "الصفصاف" من إحدى رحلاته في نهر الدانوب، أما رحلته لمصر فقد ألهمته رواية الرمال وغيرها، واختفاؤه عن الأنظار لصيف كامل في إحدى غابات كندا ألهمه كتابة روايته التي بين يدينا اليوم "الويندیجو".

تتميز أعمال بلاكوود بأنها تلعب على الوتر الحساس لدى الإنسان وهو الخوف من المجهول، حيث تزخر أعماله بالقوى الغامضة، والعوالم الغريبة، والخوارق الطبيعية، بعيدًا عن الغيلان والوحوش التي كانت تتميز بها قصص

الرعب عند معاصريه، ففي رواياته لا يوجد وحوش أو غيلان أو رعب مباشر، بل لمحات مخيفة من عالم غامض يقع وراء الحقول التي نعرفها، حيث يتماس عالمنا مع عالم آخر مخيف، ويتجنب بلاكوود الشرح والتفسير، بل يترك مخاوفنا الكامنة في أنفسنا تكمل الأجزاء الناقصة من اللوحة، فتشعر بالرعب والفزع يزحف على عمودك الفقري، وبعد أن تترك أي رواية له ستظل الصورة مرتسمة في ذهنك مثيرة أفكارك وخيالاتك متسائلًا إن كان هناك شيء في هذا العالم كهذا حقًا.

أحمد صلاح المهدي

الفصل الأول



أصيبت فرق الصيد التي خرجت لصيد حيوانات الموظ بخيبة أمل شديدة هذا العام، فلم يستطيعوا العثور على أي آثار لحوافر الموظ على الاطلاق، وكانت اختفاء الموظ غريبًا للغاية، فاضطر الصيادون العائدون إلى أحضان عوائلهم إلى التفكير في أفضل عذر ممكن يبرر فشلهم في الصيد. واحد منهم - ويدعى الدكتور كاثكارت - عاد بلا غنيمة، ولكنه جلب معه ذكرى تجربة؛ قال عنها أنها تساوي كل رؤوس حيوانات الموظ التي صيدت على الاطلاق. وللإنصاف فإن كاثكارت من بلدة أبردين لديه اهتمامات أخرى بجانب صيد الموظ؛ واحدة منها هي دراسة هذيان العقل البشري. رغم ذلك فهذه الحكاية بالذات لا يوجد ذكر لها في كتابه عن الهلوسة الجماعية وذلك لسبب بسيط (كما أقر يومًا لأحد زملائه) أنه لعب دورًا محوريًا في هذه الحكاية مما يجعله غير مؤهلٍ لإصدار حكم على هذه القضية ككل....

بالإضافة إليه وإلى دليله هانك ديفيس، كان هناك الشاب الصغير سيمبسون، ابن أخيه، طالب دين سخّر نفسه لخدمة

إحدى الكنائس الصغيرة في اسكتلندا (وكذلك فعل بعد زيارته الأولى إلى غابات كندا النائية) ودليله الذي يصحبه ويدعى ديفاجو. وجوزيف ديفاجو هو كندي من أصول فرنسية، وقد غادر موطنه الأصلي في كيبيك منذ بضعة سنوات، ثم استقر في كيتورا عندما كانت سكك الحديد الكندية في مرحلة البناء، وهو بجانب معرفته التي لا نظير لها بالحرف الخشبية وأسرار الأدغال، يستطيع أيضًا غناء الأغاني الكندية الشعبية، كما يمكنه أن يقص حكايات شيقة عن رحلات الصيد. كان شخصًا حساسًا للغاية، لذا أسَرَته البرية بطبيعتها الفريدة، لقد أحب العزلة في البرية بنوع من العاطفة الرومانسية التي بلغت تقريبًا حد الهوس. لقد سحرته حياة الغابات النائية حتى أنه أصبح جديرًا بشكل لا مثيل له في التعامل مع أسرارها.

وقع اختيار هانك عليه من أجل تلك الرحلة بالذات، فقد عرفه هانك جيدًا وكان مستعدًا لأن يراهن عليه بحياته. وصفه بأنه "الصديق كما يجب أن يكون." ولأنه كان يستخدم لغة حيوية مفعمة بالتشبيهات الجمالية فإن الحوار بين الحطابين الشجعان قويي البنية كان مفعمًا بالتفاصيل، وأحيانًا بالشتائم. إلا أن هانك اضطر لكبح جماح حديثهما

احترامًا لزعيمه "الصياد العجوز" د. كاثكارت - والذي ينادونه "دوك" كعادة الناس في تلك الأنحاء - وأيضًا لأنه فهم أن هذا الشاب الصغير سيمبسون متزمت بعض الشيء. كان لديه - مع ذلك - اعتراض واحد على ديفاجو، وهو أن ذلك الفرنسي الكندي يعاني أحيانًا من أعراض ما وصفه هانك بأنه "نتاج عقل كئيب لعين"، ما يعني أنه يصاب أحيانًا بنوبات من الصمت الكئيب، حينها لا يقدر أي شيء على أن يجعله ينبس ببنت شفة. القصد هو أن ديجافو شخصًا سوداويًا واسع الخيال، ويبدو أن فترة طويلة من "التحضر" هي ما أصابته بتلك النوبات، فقد تكفلت بضعة أيام في البرية بعد ذلك بعلاجه.

هؤلاء الأربعة هم من خرجوا في تلك الرحلة، واستقروا لأسبوع في أكتوبر الماضي، من "سنة احتجاب الموظ"، في مخيم بأقصى شمال كينورا في البرية المهجورة والمنعزلة. كان معهم أيضًا، بونك، رجل من الهنود الحمر، والذي اصطحب د. كاثكارت وهانك في العديد من رحلات الصيد في الأعوام السابقة، والذي قام بدور الطاهي. كان دوره يقتصر على البقاء في المخيم، وصيد الأسماك، وإعداد شرائح لحم الغزال والقهوة بسرعة كبيرة. كان يرتدي

ملابس بالية ورثها ممن سبقوه في هذا العمل، ولم يبدُ في تلك الملابس المدنية ـ باستثناء شعره الأسود وبشرته الداكنة ـ كهندي أحمر، بل بدا كرجل يحاول أن يمثل أنه هندي على خشبة المسرح. ورغم ذلك فإن بونك يحتفظ بغرائز عرقه الموشك على الفناء، صمته المتحفظ، وقدرته على البقاء واحتمال الظروف القاسية، وأيضًا إيمانه بالخرافات.

تحلقت المجموعة حول النار المتقدة في تلك الليلة بيأس، فقد مر أسبوع دون العثور على أي أثر جديد لحيوانات الموظ. غنى ديفاجو أغنيته ثم استغرق في واحدة من حكاياته، ولكن هانك ـ الذي كان في مزاج سيء ـ قال له أنه "يخلط الحقائق مما يجعل ما يحكيه لا شيء سوى كذبة لا تُصدَق." حينها لاذ الفرنسي بصمت عابس لم يستطيع أي شيء انتزاعه منه. كان د. كاثكارت وابن أخيه منهكين تمامًا بعد يوم مرهق. وبونك كان يغسل الأطباق أسفل سقيفة من أغصانٍ ينام أسفلها لاحقًا. لم يكترث أحد بإذكاء النار التي تخمد ببطء. فوقهم كانت النجوم مضيئة، في سماء غائمة بعض الشيء، فكان هناك رياح خفيفة والثلج يتشكلُ خلسةً على امتداد ضفاف البحيرة الساكنة بالقرب منهم، ثم زحف عليهم صمت الغابة الشاسعة المصغية وغلفهم تمامًا.

كسر هانك الصمت بصوته الحاد، قائلًا وهو ينظر بحيوية تجاه رب عمله: "أنا أرى أن نستكشف أرضًا جديدة غدًا يا دوك، فلا يوجد أي أمل في هذا المكان."

أجابه الدكتور كاتكارت بكلمات قليلة كعادته: "حسنًا، هذه فكرة جيدة."

أجاب هانك بثقة: "إنها جيدة بالطبع، فلنفترض الآن أنك توجهت معي ناحية الغرب، باتجاه بحيرة جاردن، على سبيل التغيير، لم يطأ أحدٌ منا هذه الأرض بعد..."

- "أنا معك."

- "أما أنت يا ديفاجو، فستأخذ السيد سيمبسون معك في قارب صغير، ستبحران حتى الجانب الآخر من البحيرة ثم تقطعان المسافة الباقية على الأقدام حتى تصلا إلى بحيرة الجزر الخمسين وتلقيان نظرة متفحصة على الشاطئ الجنوبي، في العام الماضي كان المكان يكتظ بحيوانات الموظ، ولعل الأمر يتكرر مجددًا هذا العام."

ظلّ ديفاجو محدقًا في النار، لم يعلق على ما سمعه بأي شيء، ما يزال منزعجًا - على الأرجح - من مقاطعة حكايته.

أضاف هانك مؤكدًا: "لم يذهب أحدٌ من هذا الطريق هذا

العام." كما لو أن لديه سببًا يجعله متيقنًا. نظر إلى رفيقه بحدة وأكمل: "من الأفضل أن تأخذ الخيمة الحريرية وتبقى هناك لليلتين." كما لو أن المسألة قد حُسمت، فهانك يُعدّ المنظم العام لرحلة الصيد، والمسؤول عن المجموعة.

بدا واضحًا للجميع أن ديفاجو ليس متحمسًا للخطة، ولكن صمته أفصح عن شيء أكثر من مجرد الرفض، فعلى وجهه العابس المظلم ارتسم تعبير غريب كومضة من ضوء النار، ولكنه لم يكن سريعًا بما يكفي لكيلا يلاحظه الرجال الثلاثة.

"لقد أحس بالخوف لسببٍ ما على ما أعتقد." قال سيمبسون ذلك لاحقًا وهو في الخيمة التي يتشاركها مع عمه، أما د. كاثكارت فلم يعلق في حينها، رغم أن التعبير قد لفت انتباهه وانطبع في عقله، لقد أصابه التعبير بعدم ارتياح لم يستطع تفسيره في ذلك الوقت.

ولكن هانك بالطبع كان أول من لاحظ ذلك، ولكن الغريب أنه بدلًا من أن يصاب بالغضب أو الانفعال من تردد رفيقه، بدأ يمازحه، وقال بلهجة بدا واضحًا فيها محاولته أن يسكته: "ولكن بالطبع ليس هناك سبب خاص لعدم ذهاب أحد إلى هناك هذا العام، ليس السبب الذي تفكر فيه على كل حال؛ في العام الماضي تسببت النار في إبعاد الناس، وهذا العام

أعتقد ... أعتقد أنهم فقط لم يذهبوا، هذا كل شيء." بدا واضحًا أن الغرض من أسلوبه هو تشجيع رفيقه.

رفع جوزيف ديفاجو عينيه، ثم خفضهما ثانيةً. هبت عليهم نسمة رياح من ناحية الغابة وأثارت الجمر ليتحول إلى شعلة متراقصة. لاحظ د. كاثكارت مجددًا التعبير المرتسم على وجه الدليل، ومجددًا لم يعجبه، ولكن هذه المرة خان التعبير محاولة صاحبه لأن يبدو طبيعيًا، ففي تلك العينين وفي لحظة خاطفة، لمح رجلًا خائفًا حتى أعماق روحه، لقد أقلقته النظرة بأكثر مما يحب أن يعترف.

سأله ضاحكًا وهو يحاول تخفيف حدة الموقف قليلًا: "هل يوجد هنود أشرار بهذا الطريق؟" أما سيمبسون الذي كان يشعر بنعاس شديد لم يمكّنه من ملاحظة هذا التصنع الماكر، فقد توجه ناحية السرير وهو يتثاءب بشدة؛ فأضاف كاثكارت وابن أخيه على غير مسمع منهم "أو... أو أي شيء ليس على ما يرام في تلك البلدة؟"

نظر إليه هانك بنظرة غامضة لم يعتدها منه وقال: "إنه خائف فقط، خائف من خرافة قديمة، هذا كل شيء! أليس كذلك يا رفيق؟" ثم ركل ديفاجو ركلة ودية في قدمه الممددة بالقرب من النار.

رفع ديفاجو رأسه منتفضًا، كأنما قد انتُزِع عنوة من أحلام يقظته، وقال بنبرة تحدي: "لا أخاف من شيء! لا يوجد شيء في تلك الغابات يمكنه أن يخيف جوزيف ديفاجو، لا تنس هذا!" ولكن الانفعال في صوته جعل من المستحيل معرفة إن كان يقول الحقيقة كاملة، أم جزءًا منها فقط.

التفت هانك إلى الدكتور، وهو على وشك إضافة شيءٍ ما، ثم صمت فجأة وهو يتلفت حوله، فجأة سمعوا صوتًا من الظلمة وراءهم جعل ثلاثتهم ينتفضون، لقد كان بونك العجوز، الذي خرج من أسفل سقيفته وهم يتحدثون، ووقف هناك خارج دائرة الضوء، يسترق السمع.

همس هانك غامزًا بعينه: "سنكمل حديثنا لاحقًا يا دوك!" ثم اعتدل واقفًا وربت على ظهر الهندي وهو يصيح بصوت عالٍ: "تعال اجلس بجانب النار ودفئ جلدك الأحمر القذر قليلًا." ثم جذبه باتجاه النار المشتعلة وألقى بها المزيد من الحطب. "لقد كانت وجبة رائعة تلك التي أعددتها لنا منذ ساعة أو ساعتين." أكمل حديثه بحماسة كأنه يحاول تغيير مسار أفكار الرجل إلى أمر مختلف. "وليس من الشهامة أن نتركك تتجمد في البرد وحدك بينما نستمتع نحن بالدفء والراحة." اقترب بونك من النار لتدفئة قدميه، وهو يبتسم

بشحوب على الكلام الذي لم يفهم نصفه، ولكنه لم يقل شيئًا. أما د. كاتكارت الذي أدرك أن استكمال الحديث بات مستحيلًا، فقد حذا حذو ابن أخيه واتجه ناحية الخيمة، تاركًا الرجال الثلاثة يدخنون بجوار النار.

ليس من السهل على المرء أن يبدل ملابسه في خيمة صغيرة دون أن يوقظ رفيقه، لذا قرر د. كاتكارت - أن يبدل ملابسه بالعراء خارج الخيمة بدافع من طيبة قلبه رغم تجاوز عمره الخمسين، وهو ما وصفه هانك لاحقًا بأنه أمر جدير بالاحترام من رجل في خريف العمر. لاحظ أثناء قيامه بذلك أن بونك قد عاد إلى سقيفته، وأن هانك وديفاجو يتبادلان الحديث بانفعال واضح، والنار تلقي بظلالها على وجهيهما، أحس كاتكارت وهو يشاهدهما بشيء من الخوف - لا يكاد يعرف مصدره - في أعماقه، كما لو أنه إنذار عابر لا يكاد يُدرَك قد لمس روحه ثم اختفى قبل أن يستطيع وضع يده عليه. ربما يمكن عزوه إلى "التعبير الخائف" الذي رآه في عينيّ ديفاجو، هذه اللمحة السريعة من المشاعر التي كادت أن تفلت من ملاحظته الدقيقة، بدا أن ديفاجو على علم بشيءٍ ما قد يسبب لهم المتاعب، ولكنه لم يستطع أن يخمن ماذا يكون هذا الشيء.

راقب الرجلين لفترة قبل أن يعود إلى خيمته الضيقة حيث ينام سيمبسون مصدرًا صوت غطيط مرتفع. كان هانك ـ كما رأى ـ يسب بانفعال، ولكنه كان سباب من باب "المودّة". أصبحت ألفاظ السباب السخيفة تتدفق بحرية بعدما خلد سبب تحجيمها إلى النوم. بعدها وضع يده بلطف على كتف رفيقه، وتوجها ناحية الظلمة حيث تقع خيمتهما الظاهرة بالكاد. لاحقًا حذا بونك حذوهما واختفى بين أغطيته ذات الرائحة النفاذة في الاتجاه المقابل.

حاول د. كاثكارت أن يخلد للنوم بدوره، ولكن كان هناك صراع يدور في عقله المتأرجح ما بين اليقظة والنعاس، وهو يفكر بفضول عما أثار خوف ديفاجو بشأن المنطقة الواقعة وراء بحيرة الجزر الخمسين، متسائلًا أيضًا عن سبب توقف هانك عن الحديث عند ظهور بونك، ثم غلبه النوم، وهو يقول لنفسه أنه سيعرف كل شيء في اليوم التالي، سيخبره هانك بالحكاية وهما يقتفيان أثر الموظ عسير المنال.

حل صمتٌ عميقٌ على المخيم الصغير المقام بجرأة بين فكيّ البرية، والتمعت البحيرة أسفل النجوم كلوح من زجاج أسود، وتسلل الهواء البارد مع أمواج الليل الصامتة القادمةً من عمق الغابة ومن قمم الجبال البعيدة ومن البحيرات

التي بدأت تتجمد، حيث تكمن رائحة حلول الشتاء الباردة الكئيبة. لا يستطيع الرجال البيض بحاسة شمهم الثقيلة إدراك تلك الرائحة، مزيج من رائحة الطحالب ولحاء الشجر والمستنقع الأسن على مسافة مئات الأميال يخفيها عنهم شذى الحطب المحترق، حتى هانك وديفاجو رغم حنكتهما في إدراك أسرار الغابة، فإن الرائحة على الأرجح ستتجاوز أنفيهما دون أن يشعرا بها.

ولكن بعد ساعة، عندما غرق الجميع في النوم كالأموات، تسلل بونك العجوز من بين أغطيته، وتوجه ناحية الشاطئ بصمت شديد لا يتقنه إلا الهنود الحمر، ثم رفع رأسه وتلفت حوله، الظلمة الكثيفة جعلت الرؤية تكاد تكون معدومة، ولكنه ـ مثل المخلوقات البرية ـ يمتلك حواسًا أخرى لا تستطيع الظلمة حجبها. أصغى السمع، وهو يتشمم الهواء، مكررًا تلك العملية عدة مرات. سرت في جسده رعشة غريبة وهو يتذوق الهواء اللاذع، ثم اندمجت هيئته بالظلام المحيط به بشكلٍ لا يدركه إلا حيوانات ورجال البرية، استدار مثل الظل، وعاد متسللاً إلى سقيفته وفراشه.

بمجرد أن خلد للنوم، فإن تغير الرياح الذي أحس به أثار سطح البحيرة بخفة محركًا انعكاس النجوم، محلقة فوق

قمم الجبال الواقعة وراء بحيرة الجزر الخمسين، قادمة من الاتجاه الذي حدق بونك ناحيته، ومرت عبر قمم الأشجار وفوق المخيم الناعس بهمهمات ودمدمات رقيقة وخافتة للغاية لا تكاد تكون مسموعة. يصحبها عبر طرق الليل المهجورة؛ رائحة غريبة حادة، ومثيرة للقلق بشكل غير طبيعي، ورغم أنها ضعيفة للغاية، إلا أنها بدت قوية للغاية بالنسبة لأعصاب الهندي الحادة، كانت رائحة شيء غير معروف، شيء مجهول تمامًا.

اضطرب كلا من ديفاجو وبونك في نومهما في تلك اللحظة، ولكن أيًا منهما لم يستيقظ، ثم مر طيف الرائحة الغريبة التي لا تُنسى عبر فراسخ الغابات المهجورة من ورائهم.

الفصل الثاني



في الصباح التالي كان المخيم يموج بالحركة قبل شروق الشمس، كان الهواء لاذع البرودة بسبب تساقط الثلج الخفيف في المساء، أنهى بونك أعماله في عجالة، فقد وصلت رائحة القهوة واللحم المقدد إلى الخيام وكان الجميع في حالة معنوية مرتفعة.

صاح هانك بنشاط وهو يشاهد سيمبسون ودليله يجهزان القارب الصغير: "لقد غيرت الرياح اتجاهها! أصبحت على الناحية الأخرى من البحيرة، هذا في صالحكما تمامًا يا رفاق، سيترك الثلج آثارًا واضحة! لو كان هناك أي موظ يتجول في المكان فلن ينتبه إلى رائحتكما في ظل هبوب الرياح بهذا الاتجاه." ثم أضاف بمرح ناطقًا الاسم بلكنة فرنسية: "حظًا سعيدًا مِسيو ديفاجو."

رد عليه ديفاجو بأمنيات طيبة مماثلة، وقد بدا في حالة معنوية مرتفعة، بعدما اختفت حالة الوجوم السابقة. وقبل حلول الساعة الثامنة وجد العجوز بونك نفسه وحيدًا في

المخيم: كاثكارت وهانك في طريقهما باتجاه الغرب، بينما القارب الذي يحمل ديفاجو وسيمبسون مع الخيمة الحريرية وطعام يكفيهما يومين، قد أصبح مجرد بقعة مظلمة تتأرجح على سطح البحرية، مبحرًا باتجاه الشرق.

خفت حدة برودة الهواء قليلًا مع إشراق الشمس على قمم الجبال المغطاة بالأشجار، وتوهجها بحرارة دفيئة على البحيرة والغابة أسفلها، وحلقت طيور العقاب البحري تمسح سطح الماء بنظرها عبر الرزاز اللامع الذي خلفته الرياح، وهزت طيور البط رؤوسها التي تقطر بالماء باتجاه الشمس ثم غمرتها في الماء برشاقة لتختفي مجددًا عن الأنظار، وعلى امتداد البصر ترامت فراسخ لا نهاية لها من الشجيرات المتشابكة، في عزلتها الهائلة المهيبة، دون أن تطأها قدم إنسان قط، تمتد عظمتها بلا انقطاع حتى الشواطئ المتجمدة لخليج هدسون.

كان سيمبسون الذي يرى المشهد للمرة الأولى وهو يجدف بقوة أثناء تأرجح القارب المتراقص، مسحورًا بهذا الجمال البري. تشرب قلبه هذا الإحساس بالحرية في تلك المساحات الشاسعة، كما تشربت رئتاه الهواء البارد العطري. وراءه في المقعد الخلفي يجلس ديفاجو وهو يدير دفة القارب، مجيبًا

بمرح على كل أسئلته، مغنيًا جزء من أغنية محلية قديمة. أحس كلاها بالبهجة والمرح، ففي مثل تلك الأوقات يتخلى الناس عن فروقهم الظاهرية والدنيوية، ويصبحون مجرد بشرٍ يتعاونون سويًا من أجل هدفٍ مشترك. سيمبسون صاحب العمل، وديفاجو العامل، أصبحا - بين تلك القوى البدائية - مجرد رجلين، الدليل والمستدِل به. يهب التفوق في المعرفة صاحبه السلطة، فأصبح الفتى الصغير على نحو ما في مركز التابع، لم يفكر مرة في معارضة ديفاجو عندما يسقط لقب "السيد" ويخاطبه باسمه "سيمبسون" مجردًا، مثلما كان الوضع دائمًا قبل أن يصلا إلى الشاطئ البعيد بعد 12 ميلًا من التجديف القاسي عكس اتجاه الرياح. في البداية ضحك، ثم أعجبه الأمر، ثم توقف تمامًا عن ملاحظته.

كان سيمبسون شابًا صغيرًا مغامرًا محبًا للتجربة، إلا أنه قليل الأسفار، فكانت تلك الرحلة هي المرة الأولى التي يرى فيها بلدًا أخرى بجانب بلدته، وزيارته السريعة إلى سويسرا، وقد أثارت ذهوله تلك المساحات الهائلة، وأدرك أن هناك بون شاسع بين أن تسمع عن الغابات البدائية، وأن تراها بنفسك؛ أما عن المكوث فيها والسعي لكشف أسرار حياتها

البرية، فهو أمر لا يخضع له أي إنسان عاقل دون أن يتعرض لتغيير في معتقداته الشخصية حتى لو ظن أنها دائمة ومقدسة.

أحس سيمبسبون بأولى العلامات البسيطة لهذا التغيير عندما أمسك بندقية حديثة ناظرًا من خلال أنبوبتها اللامعة التي لا تشوبها شائبة، كما عزز هذا التغيير بشكلٍ كبير استمرار رحلتهما لثلاثة أيام عبر البر والبحر. أما الآن وهو يترك وراءه أطراف البرية حيث يقع مخيمهم وينغمس أكثر في قلب المناطق البكر غير المأهولة، الشاسعة كأوروبا نفسها، غلفته الطبيعة الحقيقية لهذا المكان بمزيج من البهجة والخوف مما أثار مخيلته بشكل عجيب. إنه هو وديفاجو ضد عملاقٍ مهيب.

غمره إحساس بالضآلة وهو يتطلع إلى العظمة الكئيبة لتلك الغابات النائية المنعزلة، لا يمكن وصف الطبيعة الصارمة لتلك الغابات المهجورة المتشابكة إلا بالقاسية المخيفة؛ وهي تبزغ من وراء المياه الزرقاء في الأفق البعيد كاشفة عن نفسها. أدرك حينها هذا النذير الصامت، أدرك عجزه المطلق، وحده ديفاجو - كرمزٍ للمدنية البعيدة حيث يكون الإنسان هو السيد - يقف بينه وبين الموت القاسي من الإنهاك والجوع.

لذا أحس بالإثارة عندما رأى ديفاجو يستقر بالقارب على الشاطئ ويقلبه رأسًا على عقب واضعًا المجاديف بحرص أسفله، ثم يبدأ في حفر علامات مميزة على جذوع أشجار التنوب صانعًا أثرًا يُرى بالكاد، ثم يقول بلا اكتراث: "هكذا يا سيمبسون لو حدث أي شيء لي؛ تستطيع العودة إلى القارب بتتبع تلك العلامات، ثم أقطع البحيرة باتجاه الغرب جهة الشمس حتى تصل إلى المخيم مجددًا، هل فهمت؟"

قال ذلك بدون أي تغير ملحوظ في صوته، كأن هذا هو أكثر شيء طبيعي يمكنه قوله، إلا أنها مثلت في تلك اللحظة للشاب الصغير رمزًا لضعفه وقلة حيلته، إنه وحده مع ديفاجو في العالم البدائي، هذا كل شيء. القارب - وهو رمز آخر لتقدم الإنسان. أصبح الآن وراءهم، وكانت تلك العلامات الصفراء التي حُفرت بفأسٍ على جذوع الأشجار هي الدليل الوحيد على الموضع المخبأ به.

في تلك الأثناء كانا يتبادلان حمل الحقائب فيما بينهما، بينما حمل كل واحد منهما بندقيته الخاصة، وسارا في طريقٍ محدد قافزين من فوق الأحجار وجذوع الأشجار الواقعة على الأرض؛ وعابرين المستنقعات شبه المتجمدة، ملتفين حول عدد كبير من البحيرات التي ترصع الغابة، وضفافها محاطة

بالضباب، وفي الساعة الخامسة وجدا نفسيهما فجأة على حافة الغابة، ناظرين عبر مسطح من الماء مترامي أمامهما على مساحةٍ شاسعة، متناثر فيه العديد من جزر أشجار الصنوبر مختلفة الأشكال والأحجام.

قال ديفاجو متعبًا: "بحيرة الجزر الخمسين." ثم أضاف بلغة شاعرية غير متعمدة "والشمس على وشك أن تغرق في مياهها." ليبدئا على الفور في تجهيز المخيم من أجل قضاء الليل.

نُصبت الخيمة الحريرية في دقائق قليلة بأياد ماهرة تتقن كل حركة، وهُيئت للمكوث والراحة، كما رُتبتْ الأسرة المصنوعة من أغصان شجر البلسم، وأُشعلت نيران الطهو بالحد الأدنى من الدخان. أثناء انهماك الشاب الأسكتلندي في تنظيف السمك الذي صِيد أثناء إبحارهما بالقارب؛ اقترح ديفاجو أن يأخذ جولةً بين الأشجار بحثًا عن أي أثر للموظ، قائلًا وهو يسير مبتعدًا: "قد أعثر على أثرٍ لقرونهم محفورًا على جذوع بعض الأشجار، أو أرى أحدهم يتغذى على بقايا أوراق شجر القيقب." ومع آخر كلماته كان قد اختفى، توارت هيئته الصغيرة كما تتوارى الظلال في الغسق، ولاحظ سيميسون بنوع من الإعجاب كيف احتوته الغابة بداخلها، لم

يخطُ سوى بضعة خطوات - كما بدا له - قبل أن يتلاشى كل أثر له. لم يكن هناك - مع ذلك - سوى القليل من الشجيرات في تلك الأنحاء، فتراصت الأشجار بعيدة عن بعضها البعض بشكلٍ ما، وفي المساحات الخالية نبتت أشجار القيقب والبتولا، نحيفة ومنتصبة كالرماح، بالمقارنة مع جذوع أشجار التنوب والأتسوجة الضخمة. لولا تلك الوحوش منهكة القوى التي تظهر بين الحين والآخر، وتلك الجلاميد من الصخور الرمادية التي تبرز بأطرافها الحادة الخشنة من الأرض، لصلح هذا المكان ليكون متنزهًا في البلدة القديمة. يكاد الإنسان يرى فيها أثر وجود بشري، ولكن إلى اليمين قليلًا تظهر المناطق الشاسعة المحترقة، التي تمتد لأميال، مظهرة وجهها الحقيقي، حيث اندلعت الحرائق في السنوات الماضية وتسعرت لأسابيع، وانتصبت الجذوع المتفحمة ذابلة وقبيحة، وعدد من فروع الشجر ملتصق - كأعواد كبريت محترقة - بالأرض الخربة المنكوبة بما تعجز عن وصفه الكلمات. ما زال هناك أثر خافت لرائحة الفحم والرماد المشبع بمياه الأمطار في المكان.

حل المساء سريعًا، فخيمت الظلمة على الغابة، فلم يكن هناك صوت يُسمَع سوى طقطقة حطب النيران وصوت تكسر

الأمواج على شاطئ البحيرة الصخري، كما اختفت الرياح مع اختفاء الشمس، فلم يتحرك أي شيء في عالم الأغصان الشاسع هذا. بدا أن آلهة الغابة الذين يُعبَدون في صمت وعزلة قد يطلون في أي لحظة بهيئتهم الهائلة والمخيفة من بين الأشجار. في الأمام، وعبر الممرات المنتصب بها الجذوع الضخمة كالأعمدة، تمتد بحيرة الجزر الخمسين متخذة شكل هلال، طولها خمسة عشر ميلًا وعرضها من حيث يقع مخيمهم خمسة أميال تقريبًا. السماء كالورد والزعفران، جوها صافي أكثر من أي شيء رآه سيمبسون في حياته، ألقت بضوئها الشاحب على الأمواج، وعلى الجزر التي طفت على سطح البحيرة كأسطول من السفن المسحورة، مزينة بأشجار الصنوبر التي انتصبت قممها بلطف ناحية السماء، فبدت كأنها ترتفع لأعلى مع تلاشي الضوء، كما لو أنها ترغب في رفع المرساة والإبحار عبر طرق السماوات بدلًا من موطنها الحالي في البحيرة المهجورة.

وأعلنت قطعٌ من السحاب الملون، كرايات السفن الزاهية، بدء رحلتها نحو النجوم...

كان جمال المشهد مبهجًا بشكل ساحر، حتى أن سيمبسون أحرق السمكة ولسع أصابعه أثناء محاولته الموازنة بين

التمتع بالمشهد، والتركيز على المقلاة والنار في الوقت ذاته. ورغم ذلك، خيمت العناصر الأخرى للبرية على أفكاره؛ البرية التي لا تكترث بالحياة البشرية، فقد تسحقه دون أن تلحظ وجوده، وهذا الإحساس بالوحدة المطلقة الذي استولى عليه بعد رحيل ديفاجو. ثم تناهى إلى مسامعه صوت خطوات رفيقه التي تدل على عودته.

كان هناك نوعًا من المتعة في هذا الإحساس، ممتزجًا بيقظة منطقية تمامًا، وبشكل غريزي بدأت تلك الأفكار تتردد في نفسه: "ماذا كنت سأفعل - أو بالأحرى أستطيع أن أفعل - لو حدث شيء قبل عودته؟"

استمتعا بالعشاء الذي استحقاه عن جدارة بعد مسيرة شاقة بأقل الطعام لمسافة ثلاثين ميلًا، فتناولا كميات لا تحصى من السمك، ثم شربا الشاي المركز الخالي من اللبن، وأخذا يدخنان ويتبادلان الحكايات بجوار النار، ويضحكان وهما يمددان أطرافهما المتعبة، ويناقشان خططهما من أجل الصباح. كان ديفاجو في حالة معنوية ممتازة، رغم خيبة أمله بسبب عدم عثوره على آثار للموظ كي يبلغ عنها، ولكن المساء حل سريعًا ولم يستطع أن يبتعد كثيرًا، كما أن حرائق الغابات كانت أمرًا سيئًا بدورها، فقد تلطخت يداه وملابسه

بالفحم. عاد لسيمبسون مجددًا نفس الإحساس بشكلٍ أقوى، إنهما وحيدان معًا في البرية.

في تلك اللحظة قال: "هل تعرف يا ديفاجو، تلك الغابة ضخمة للغاية بشكلٍ يجعلني لا أشعر بالألفة، أو بالارتياح، هل تفهمني؟" بالكادِ استطاع أن يعبر عن الشعور الذي كان ينتابه حينها، لم يتوقع أن يأخذ دليله كلامه بتلك الجدية والاهتمام البالغين. أجابه ديفاجو وهو يتفرس ملامحه بعينيه البنيتين: "لقد أصبت كبد الحقيقة يا زعيم، هذه هي الحقيقة تمامًا بلا مواربة." ثم أضاف بصوتٍ منخفض كأنه يكلم نفسه: "كثيرون تجاهلوا هذا الشعورِ، وانتهى بهم الأمر ممزقين إلى أشلاء."

ولكن الجدية التي تحدث بها ديفاجو لم تعجب سيمبسون، فهي لم تكن متناسبة مع المشهد والمكان، وأحس بالندم لأنه تطرق إلى هذا الموضوع. تذكر فجأة ما قاله له عمه عن الرجال الذين يصابون بحمى غريبة بفعل البرية، إغراء الأماكن الواسعة المهجورة يتشبث بهم بقوة مما يدفعهم للتقدم للأمام، نصف مسحورين، نصف مضلَّلين، نحو موتهم المحتوم. أدرك بفطنته أن رفيقه يشعر بشيءٍ من التعاطف تجاه هؤلاء القوم غريبي الأطوار. أدار دفة الحديث

إلى مواضيع أخرى، مثل هانك والدكتور على سبيل المثال، وأي الفريقين المتنافسين سيستطيع العثور على الموظ أولًا.

علق ديفاجو بلا اكتراث: "لو توجها ناحية الغرب، سيكون هناك ستون ميلًا بيننا وبينهم الآن، مع وجود بونك العجوز في منتصف المسافة بالمخيم الرئيسي، يملأ معدته بالسمك والقهوة."

ضحك كلاهما على تخيل تلك الصورة، ولكن ذِكْر الستين ميلًا بشكلٍ عارض جعل سيمبسون يدرك مجددًا الاتساع الشاسع المذهل لتلك الأراضي التي يبحثون فيها على الصيد؛ فستون ميلًا هنا ما هم إلا مجرد خطوة. استولى على عقله قصص الصيادين المفقودين، وأقلق راحته التفكير في هؤلاء المرتحلين بلا مأوي أو وطن، يغويهم جمال الغابات الشاسعة، وتساءل بشك إن كان مزاج رفيقه هو الذي أودي به إلى التفكير القوي في تلك الإيحاءات المزعجة.

طلب منه: "غني لنا يا ديفاجو - إن لم تكن متعبًا - واحدة من الأغاني القديمة التي غنيتها في تلك الليلة." ناول رفيقه كيس التبغ وهو يملأ غليونه، أما الكندي فبكل سرور أطلق صوته العذب عبر البحيرة بواحدة من تلك الأناشيد الحزينة

- بل تكاد أن تكون كئيبة - التي اعتاد الحطابون والصيادون على غنائها للتخفيف من عبء عملهم الشاق. كانت هناك نكهة رومانسية جذابة في الأغنية، شيءٌ فيها غلّف المكان بجو من الحياة القديمة حين تحالف الهنود الحمر والطبيعة البرية سويًا، أو تصارعا أحيانًا، زمن أقدم من زمنهم هذا بكثير، حلّق الصوت بخفة فوق سطح البحيرة، إلا أن الغابة من ورائهم بدت كأنها قد ابتلعت الصوت مرة واحدة فلم يكن هناك رجعٌ له أو صدى.

في منتصف المقطع الثالث من الأغنية لاحظ سيمبسون شيئًا غريبًا، شيئًا أعاد لذاكرته أفكارًا من مشاهد بعيدة؛ تغير مثير للاهتمام ألمّ بصوتِ الرجل، وقبل أن يستطيع تحديد كنهه أحس بالاضطراب، فرفع رأسه على الفور ليجد ديفاجو- رغم استمراره في الغناء - يحدق النظر تجاه أجمة الأشجار، كأنما قد رأى أو سمع شيئًا. بدأ صوته يخفت حتى أصبح كالهمس، ثم اختفى تمامًا، وفي حركة مفاجأة اعتدل واقفًا، وبدأ يتشمم الهواء، ككلب يحاول اقتفاء أثر رائحة، بدأ يستنشق الهواء من فتحتي أنفه في دفعات صغيرة حادة، متلفتًا وهو يفعل ذلك في كل الاتجاهات، وبالنهاية اتجه ناحية الشرق حيث شاطئ البحيرة. كان أداؤه مسرحيًا مثيرًا، وباعثًا لمشاعر غير سارة في الوقت ذاته، فكان قلب

سيمبسون يخفق محتجًا وهو يشاهده.

قال سيمبسون وهو يعتدل من جلسته ليقف بجواره "يا إلهي، لقد أفزعتني يا رجل!" ثم نظر ناحية بحر الظلمة مضيفًا: "ما الأمر؟ هل أنت خائف...؟"

قبل أن ينتهي من كلماته عرف أن سؤاله ساذج، فأي رجل بعينين في رأسه يستطيع رؤية الكندي وقد اعتراه الشحوب من رأسه حتى أخمص قدميه، فحتى وجهه المسفوع بالشمس أو وهج النيران لا يمكنها إخفاء امتقاع وجهه.

ارتجف سيمبسون وأحس بالضعف يعتري ساقيه، فسأل بكلمات سريعة: "ما الأمر؟ هل شممت رائحة الموظ؟ هل شممت رائحة شيء غريب، شيء... خاطئ؟" خافضًا صوته بشكلٍ غريزي.

أحاطت الغابة بهم بجدارٍ من الأشجار، والتمعت سيقان الأشجار القريبة منهم كالبرونز في ضوء النار، ووراء ذلك - كما بدا لهما - لا يوجد سوى الظلام الدامس، والصمت المطبق. من ورائهما مباشرةً ارتفعت ورقة شجر على إثر نفخة هواء عابرة، تأملتها قليلًا، ثم أعادتها لموضعها دون أن تزعج بقية الأوراق. بدا كأن مليون سببًا خفيًا قد اتحدوا

سويا لصنع هذا التأثير المرئي المنفرد. حياةٌ أخرى قد نبضت حولهما، ثم تلاشت مجددًا.

استدار ديفاجو بغتةً وقد تحول امتقاع وجهه إلى لونٍ رمادي داكن، قائلًا ببطء وحسم بصوتٍ غريب متغير به نوعٌ منَ الحدة: "لم أقل إني سمعت أو شممتُ شيئًا، ليس من الصّواب أن تكون متسرعًا في سؤالك." ثم أضاف فجأة بصوت بذل مجهودًا واضحًا كي يجعله طبيعيًا: "هل أحضرت الكبريت يا زعيم سيمبسون؟" ثم أشعل غليونه الذي ملأً نصفه قبل بدئه في الغناء.

وبدون أن ينطقا بأي كلمة جلسا مجددًا بجانب النار، ولكن ديفاجو غير جلسته كي يواجه الاتجاه الذي تأتي منه الرياح، وأدرك سيمبسون أنه غير موضعه كي يسمع ويشم كل ما يمكن أن يُسمَع أو يُشَم؛ فقد أصبح واضحًا بعدما اتجه ناحية البحيرة مديرًا ظهره للأشجار أن الشيء الذي أرسل ذلك التحذير الغريب والمفاجئ لحواسه اليقظة المتمرسة لم يأت من ناحية الغابة.

قال مفسرًا تصرفه الغريب: "لم تعد لدي رغبة في الغناء، فتلك الأغنية قد أعادت لي ذكريات مزْعجة، لم يكن عليّ أن أغنيها، إنها تجعلني أتخيل أشياءً كما ترى."

بدا جليا أن الرجل ما يزال يصارع بعض الانفعالات العميقة الجياشة، محاولاً أن يبرر تصرفاته لرفيقه، ولكن هذا التفسير - رغم أنه يحمل جزءً من الحقيقة - لم يكن سوى كذبة، وأدرك تمامًا أن سيمبسون لم يقتنع به؛ فلا شيء يمكنه أن يفسر هذا الرعب الذي جعل الدماء تغيض من وجهه عندما وقف ليتشمم الهواء، ولا شيء - من نار متقدة أو دردشة حول مواضيع طبيعية - يمكنه أن يجعل هذا المخيم يعود كما كان. ظلال الرعب المجهول التي تجلت بوضوح رغم غموضها لثوانٍ قليلة على ملامح وتصرفات ديفاجو، قد نشبت مخالبها بشكلٍ مبهم في رفيقه. والمجهود الذي يبذله ديفاجو كي يخفي الحقيقة جعل الأمور تزداد سوءً، وما عزز من اضطراب الشاب الصغير هو احساسه بصعوبة - بل استحالة - طرح الأسئلة؛ وعلاوة على ذلك جهله التام لسبب ما حدث؛ الهنود الحمر، الوحوش البرية، حرائق الغابات، كل تلك الأشياء كانت مستبعدة تمامًا، نشطت مخيلته في البحث ولكن بلا فائدة...

*****

بطريقة أو بأخرى، بعدما استرخيا لفترة طويلة وهما يدخنانً ويصطليان أمام النار المشتعلة، بدأ الظل الذي

اقتحم مخيمهم المسالم في الانسحاب. لعل هذا تحقق بفعل المجهود الذي بذله ديفاجو لاستعادة سلوكه الطبيعي الهادئ؛ أو لعل سيمبسون هو من بالغ في تضخيم الجزء الصغير من الحقيقة؛ أو ربما لهواء البرية المنعش القدرة على الشفاء. أيًا كان السبب، فقد بدا أن الإحساس المفاجئ بالرعب قد رحل بغموض كما جاء بغموض، ولم يحدث أي شيء لإثارته مجددًا. لام سيمبسون نفسه على استسلامه بلا مبرر منطقي للإحساس بالرعب كطفلٍ صغير، وعزا تفسير ما حدث مرةً إلى غرائز العقل الباطن التي أثارها مشهد الغابة الهائل، ومرةً إلى إحساسه بالعزلة، ومرةً أخرى إلى إحساسه بالإجهاد الشديد. أما امتقاع وجه ديفاجو فكان من الصعب تفسيره بشكلٍ مقنع، إلا أنه عزاه إلى تأثير ضوء النار، أو أن مخيلته تتلاعب به.

بعدما يختفي أي شعور غريب ينتاب الإنسان، يمكن للعقل أن يجد العديد من الطرق لتفسير أسبابه... أشعل سيمبسون غليونه للمرة الأخيرة وهو يحاول أن يضحك مع نفسه. عندما يعود إلى بلدته في اسكتلندا سيكون بجعبته حكاية جيدة، لم يدرك أن ضحكه هو علامة على الرعب المتواري في خبايا روحه، وأنها واحدة من العلامات الجلية على أنه

يحاول أن يقنع نفسه بأنه ليس مرتعبًا.

سمع ديفاجو الضحكة الخافتة فنظر إليه والدهشة مرتسمة على وجهه، ثم وقف الرجلان جنبًا إلى جنب يهيلان التراب على الجمرات المشتعلة بأقدامهما قبل الذهاب إلى الفراش، كانت الساعة العاشرة مساءً وهو وقت متأخر بالنسبة لصياد كي يظل مستيقظًا.

سأله بلهجة اعتيادية ولكنها جادة: "ما الذي يضحكك؟"

ارتجف سيمبسون عند سماع السؤال، فقد أعاده إلى تلك الأفكار التي استولت على عقله، وقال متلعثمًا: "كنت... كنت أفكر حينها في الغابات الصغيرة ببلدتي،" ثم لوح بيديه حوله مشيرًا إلى الغابة التي تحيط بهما مكملًا: "وأقارن تلك الغابات بـ... بكل هذا."

تلى ذلك فترة من الصمت لم ينبس فيها أحدهما ببنت شفة، قبل أن يعقب ديفاجو: "كلها نفس الشيء، لم أكن لأضحك على أي منها لو كنت مكانك." ثم أضاف ناظرًا من وراء كتفيّ سيمبسون نحو الظلال: "هناك أماكن لم تطأها قدم بشري من قبل، ولا يعرف أحدٌ أيضًا أي الأشياء تسكن بها."

أوحت طريقته في الكلام بأشياءٍ هائلة ومروعة، فسأله

سيمبسون: "أهي أماكن شاسعة؟ أهي بعيدة عن هنا؟"

اومأ دياجو برأسه، التعبير المرتسم على وجهه كان مظلمًا، هو أيضًا أحس بعدم الارتياح، فهم سيمبسون أن منطقة نائية بذلك الاتساع ستكون بالتأكيد في عمق الغابة، حيث لم يحدث في التاريخ البشرية أن عُثر عليها أو وطأتها قدم. لم تكن الفكرة من النوع المحبب لنفسه، فقال بصوت عالٍ مرح أن الوقت قد حان للذهاب إلى الفراش، ولكن دياجو تلكأ، عبث بجمرات النار، أعاد رص الأحجار بلا أي داعٍ، فعل العديد من الأشياء بلا أي دافع حقيقي لفعلها، بدا جليًا أن هناك شيئًا يحاول أن يقوله، ولكنه يجد صعوبة في اختيار الكلمات الملائمة له.

قال فجأة وعددًا من الشرارات تختفي في الهواء: "قل لي يا زعيم سيمبسون، ألم تشم رائحة .. شيء؟ أعني .. ليس شيئًا محددًا؟"

أحس سيمبسون أن السؤال رغم بساطته يخفي أفكارًا مخيفة خطيرة في عقله، فزحفت قشعريرة باردة على ظهره، وأجابه بحزم وهو يركل جمرات النار، صوت قدمه جعله يجفل: "لا شيء سوى الخشب المحترق."

قال الدليل بإصرار ناظرًا إليه عبر عتمة الليل: "طيلة المساء لم تشم .. شيئًا؟ شيء غريب ومختلف أي شيء شممته من قبل؟"

أجابه بحدة، شبه غاضب: "لا يا رجل؛ لا شيء على الإطلاق!"

أشرق وجه دياجو وهو يقول بارتياح واضح: "من الجيد سماع ذلك."

سأله سيمبسون بحدة: "وماذا عنك؟" ثم أحس بالندم في نفس اللحظة على التفوه بهذا السؤال.

اقترب منه الكندي في الظلمة وهو يهز رأسه قائلًا بلهجة ليست مقنعة تمامًا: "لا أعتقد ذلك، لا شك أن تلك الأغنية التي غنيتها هي ما تسبب في ذلك، لقد كانت تُغنى قديمًا في مخيمات تقطيع الحطب والأماكن المهجورة، عندما يخافون من أن يكون الويندیجو في أي مكان حولهم، مرتحلًا بخفة من مكان لآخر."

سأله سيمبسون على الفور، منزعجًا من عدم استطاعته مجددًا أن يمنع تلك القشعريرة المفاجئة التي انتابته: "وما هو هذا الويندیجو، بالله عليه؟" أدرك أنه قد اقترب كثيرًا من سبب رعب الرجل، إلا أن موجة من مشاعر الفضول

الممتزج بالشفقة قد تغلبت على حسن تقديره للأمور، وعلى خوفه.

التفت إليه دياجو بخفة محدقًا به كأنه على وشك أن يصرخ من الفزع، قد برقت عيناه، وانفتح فمه على اتساعه، إلا أن كل ما نطق به - أو بالأحرى همس به فقد خفت صوته - هو: "لا شيء، لا شيء إلا ما يعتقده هؤلاء الحطّابين عندما يعاقرون الخمر أكثر من اللازم، حيوان ضخم من نوعٍ ما يعيش هنالك."

قال سيمبسون: "خرافات الغابات النائية." ثم بدأ يتحرك ناحية الخيمة محاولًا التخلص من يد دياجو القابضة بإحكام على ذراعه، مكملًا: "هيا يا رجل، أسرع بالله عليك، وأترك المصباح مضاء! علينا أن نخلد للنوم إن أردنا أن نستيقظ صباح باكر مع شروق الشمس..."

جائه صوت دليله من الظلمة بالقرب منه وهو يقول: "أنا قادم." ظهر بعد لحظات وهو يحمل مصباحًا علقه بمسمار في العامود الأمامي للخيمة. تحركت ظلال مئات الأشجار من موضعها وهو يفعل ذلك، وعندما تعثر بالحبل وهو يقفز بخفة إلى الداخل، اهتزت الخيمة كأن هبة رياح قد عصفت بها.

استلقى الرجلان دون تغيير ملابسها على سريريهما المصنوعين من أغصان أشجار البلسم الناعمة المرتبة بعناية، كان المكان بالداخل دافئًا ومريحًا، أما بالخارج فقد جثمت الأشجار العديدة عليهما، حاشدة ظلالها الكثيفة، وهي تخنق الخيمة الصغيرة التي وقف هناك كصدفة بيضاء صغيرة تواجه محيطًا هائلًا من الأشجار.

ما بين الشخصين المنعزلين عبر ظلٍّ آخر، ظلٌّ لم يصنعه الليل، بل ظل تشكل من خوفٍ غريب، لم يستطيعا التخلص منه بالكامل، هذا الذي وثب عليهما فجأة بمنتصف غناء دياجو. أما سيمبسون، وهو راقد هناك يحدق في الظلمة عبر باب الخيمة، مستعدًا للغوص في هاوية النوم العطرة، عرف لأول مرة السكون الفريد والعميق للغابة البدائية عندما لا يكون هناك أي رياح، وعندما أصبح الليل ثقيلًا وغلف روحه برداءٍ سميك، حينها فقط ... استسلم للنوم ...



جاء صوت حركة المياه من وراء باب الخيمة متناغمًا مع صوت نبضات قلبه الخفيضة، عندما أدرك أنه يرقد مفتوح العينين وأن هناك صوت يفرض نفسه بنعومة ماكرة ما بين خرير الماء وتكسر الأمواج الصغيرة. لم يستطع في البداية إدراك طبيعة هذا الصوت، مما أيقظ بداخله مشاعر الخوف والحذر، فأرهف السمع بتمعن، ولكن هذا كان غير ذي جدوى في البداية؛ فنبضات الدم في عروقه بدت كضوضاء مرتفعة في أذنيه، أخذ يتساءل: هل يأتي الصوت من ناحية البحيرة، أم من ناحية الغابة؟

ثم فجأة خفق قلبه مرتعدًا بقوة عندما أدرك أن الصوت بالقرب منه في الخيمة؛ وعندما استدار كي يستطيع السماع بشكلٍ أفضل، وجد نفسه يحدج في مصدر الصوت. لقد كان صوت بكاء، دياجو النائم على سريره المصنوع من أفرع الأشجار، ينشج في الظلمة كأن قلبه على وشك أن ينكسر، وهو يحشو بطانيته في فمه محاولاً كتم الصوت.

أول شعور راوده - قبل أن يفكر أو يقوم بأي ردة فعل - هو إحساس عميق وحاد بالتعاطف؛ فسماع هذا الصوت البشري الحميم في قلب تلك المنطقة شديدة الانعزال أيقظ بداخله الإحساس بالشفقة. كان أمرًا متناقضًا، متناقضًا بشكل مثير للشفقة؛ أي نفع لتلك الدموع في قلب تلك البرية القاسية؟ كطفل يبكي في قلب المحيط الأطلسي ... ثم بدأ يستوعب الأمر بشكلٍ كامل، مع تذكر كل ما حدث سابقًا، فبدأ الرعب يستولي على قلبه، والدماء تتجمد في عروقه.

همس بسرعة: "ما الخطب يا دياجو؟" حاول أن يجعل صوته لطيفًا: "هل تشعر بالألم؟ بالحزن؟" لم يكن هناك أي رد، ولكن الصوت اختفى فجأة، فمد يده ولمسه ولكن لم تند عن جسده أي حركة.

"هل أنت مستيقظ؟" فقد خطر على باله أن الرجل كان يبكي في أثناء نومه، "هل تشعر بالبرد؟" لاحظ أن قدميه المكشوفتين، ممتدتان خارج فتحة الخيمة، فقام بتغطيتهما بجزء من بطانيته. انزلق دياجو من فوق سريره، وبدا أن الأغصان قد انجذبت معه، ولكنه لم يحاول أن يعيد الجسد إلى موضعه خشية أن يوقظه.

تجرأ على أن يسأل سؤالًا أو اثنين بصوتٍ هامس، ورغم

انتظاره عدة دقائق لم يأته أي جواب، ولا أي إشارة على وجود حركة. بمرور الوقت بدأ يسمع صوت التنفس الهادئ الرتيب، ثم وضع يده بلطف على صدره فشعر به يرتفع ويهبط في ثبات وانتظام.

همس قائلًا: "دعني أعرف إن كان هناك خطبٍ ما، أو إن كان هناك شيء بوسعي فعله. أيقظني على الفورٍ إذا شعرت بأي شيء... غريب."

لم يعرف ما يمكن قوله أكثر من ذلك، فاستلقى مجددًا يفكر ويتساءل عن معنى كل ذلك. تيقن أن دياجو كان يبكي في أثناء نومه، لقد أصابه حلمٌ أو آخر باضطرابٍ شديد، إلا أنه لن ينسى طيلة حياته صوت النشيج المثير للشفقة الذي سمعه في تلك الليلة، وإحساسه بأن البرية الشنيعة لتلك الغابة بأكملها كانت تنصت السمع...

انشغل بالتفكير لفترة طويلة في تلك الأحداث الجديدة، حيث احتلت ركنًا مجهولًا من عقله؛ فرغم أنه استطاع تفسير كل تلك الإيحاءات البغيضة بشكلٍ منطقي، إلا أن احساسًا بعدم الارتياح ظل يلاحقه، مقاومًا كل محاولاته لصرفه بعيدًا، ضاربًا جذوره في أعماقه بشكلٍ غريب وغير معتاد.

الفصل الرابع

أثبت النوم أنه أقوى من أي مشاعر، وبمرور الوقت بدأت أفكاره ترتحل إلى أماكن عدة، وهو راقد على فراشه، دافئ كالخبز المحمص، متعب بشكلٍ كبير، فبدأ الليل يغمره بالهدوء والـراحـة، مخففًا من حدة الذكريات والأفكار المزعجة، وفي خلال نصف ساعة أصبح منعزلًا عن العالم الخارجي المحيط به.

إلا أن النوم في تلك الحالة كان ألد أعدائه، فقد جعله غافلًا عما يقترب منه، قاتلًا يقظة حواسه.

مثلما يحدث في الكوابيس عندما تتعاقب الأحداث واحدة تلو الأخرى بنوعٍ من الواقعية المخيفة، في الوقت التي تظل فيه بعض التفاصيل المتناقضة التي تحيل المشهد كله إلى نوع من الخداع والوهم؛ كذلك كانت الأحداث التي تعاقبت في تلك الليلة، رغم حدوثها في الواقع، إلا أن العقل اقتنع بطريقةٍ أو بأخرى بأن يتغاضى عن التفاصيل التي لم يستطع تفسيرها في حيرة كأنها لم تكن؛ وهكذا أصبح بالنسبة له

جزء فقط من الحقيقة، والبقية مجرد وهم. في مؤخرة عقل النائم شيءٌ ما يظل متيقظًا، مستعدًا لإطلاق حكمه: "كل ما تراه ليس حقيقي، عندما تستيقظ ستفهم كل شيء."

وهكذا كان الأمر - بشكلٍ ما - بالنسبة لسيمبسون، تلك الأحداث رغم أنها قابلةٌ للتصديق أو التفسير في حد ذاتها، إلا أنها ظلت بالنسبة للرجل الذي رآها وسمعها مجرد تسلسل لحقائق منفصلة من الرعب المطلق، لأن تلك القطعة الصغيرة التي كانت ستجعل حل الأحجية واضحًا، ظلت مستترةً ومُتَغافَلًا عنها.

بقدر ما يستطيع أن يتذكر؛ كان هناك حركة عنيفة تزحف من أعلى الخيمة ناحية الباب، أيقظته الحركة بادئ الأمر، ثم أدرك أن رفيقه يجلس منتصبًا بجواره وهو يرتعش. لا شك أن عدة ساعات قد مرت فقد أظهر ضوء الفجر الشاحب هيئته في مقابل قماش الخيمة؛ هذه المرة لم يكن الرجل يبكي، بل كان يرتجف من رأسه حتى أخمص قدميه كورقة في مهب الريح. كان ديفاجو متكومًا بجواره بحثًا عن الحماية، ينكمش خوفًا من شيء يبدو أنه يختفي بالقرب من الأبواب المفتوحة للخيمة الصغيرة.

صاح فيه سيمبسون عندئذ يسأله سؤالًا أو آخر - ففي حيرة

الاستيقاظ من النوم لم يتذكر ما قاله بالضبط. ولكن الرجل لم يتفوه بأي إجابة، غلفه إحساسٌ عام بكابوسٍ مخيف، مما جعل الكلام والحركة أكثر صعوبة؛ في البدايةً لم يدرك أين هو، في أحد المخيمات السابقة، أم على سريره ببيته في أبردين، هذا الإحساس بالالتباس كان مزعجًا للغاية.

لاحقًا - بالتزامن مع استيقاظه كما بدا له - اخترق سكون الفجر العميق بالخارج أغرب صوت يسمعه في حياته. جاء الصوت بلا تحذير، أو تمهيد مسموع، وكان مخيفًا بشكلٍ لا يوصف، خيل لسيمبسون أنه ربما يكون صوت بشري، أجشٌ ولكنه حزين، صوت قوي ناعم بالقرب من الخيمة بالخارج، بالأعلى على الأرجح لا بالقرب من الأرض، صوت جهوري بشكل غريب، يخترق الآذان ولكن له عذوبة مغرية. تردد الصوت في ثلاث مقاطع - أو صيحات - مميزة منفصلة، حملت نمطًا غريبًا مألوفًا، ثم أدرك أنه يردد اسم الدليل: "ديفاجو!"

اعترف سيمبسون بعدم قدرته على وصف الصوت بشكلٍ معقول، فهو لا يشبه أي صوت سمعه في حياته، فهو مزيج من طبائع متنافرة؛ قال عنه أنه "صوت يشبه الرياح العاوية، كشيء وحيد جامح، شيء بري له قوة غير طبيعية."

وقبل أن يختفي الصوت، عائدًا إلى هاوية الصمت السحيقة، قفز الدليل على قدميه مسرعًا وهو يجيب الصوت بصيحة غير مفهومة. ارتطم بقوة شديدة بعامود الخيمة، مما جعلها تهتز بقوة، فأخذ يحرك ذراعيه وساقيه بحركة سريعة مجنونة محاولًا تخليص نفسه من البطانية المتشبثة به. لثانية أو اثنتين وقف منتصبًا أمام باب الخيمة، ترتسم هيئته المظلمة في شحوب الفجر، وفجأة، وقبل أن يستطيع سيمبسون فعل أي شيء لإيقافه، اندفع بسرعة غاضبة راكضًا عبر باب الخيمة واختفى تمامًا عن الأنظار. وبينما هو يبتعد بسرعة مذهلة، بدأ صوته يخفت في الأفق، يصرخ بصوت مرتفع صرخات من الرعب المحموم، والتي حملت في الوقت ذاته شيئًا غريبًا للغاية، كحالة من النشوة المذعورة.

"آه! آه يا قدمايّ المحترقان! يا قدمايّ المحترقان بالنار! آه! يا لهذا الارتفاع والسرعة المتقدة!"

ثم اختفى الصوت تمامًا في الأفق، وعاد صمت الصباح الباكر المطبق يخيم على الغابة كذي قبل.

حدث كل هذا بسرعة شديدة حتى أنه لولا السرير الفارغ بجواره لظن سيمبسون أن هذه مجرد ذكرى من كابوس مخيف ظلت معه بعد استيقاظه، ما زال يشعر بالدفء في

الموضع الذي رقد عليه الجسد المختفي؛ وهناك ترتمي البطانية المتشابكة متكومة؛ ما تزال الخيمة تهتز بفعل هذا الرحيل الطائش العنيف. أخذت الكلمات ترن في أذنيه، كأنه ما يزال يسمعها في الأفق، بتلك اللغة الغريبة الصادرة عن عقل أصابه الخبل على حين غرة. بمرور الوقت اتضح له أن ما رآه أو سمعه ليس وحده هو ما يثير الغرابة في نفسه؛ فبعد أن صرخ الرجل وركض مبتعدًا لفت انتباهه تلك الرائحة العطرية الغريبة، رائحة ضعيفة ولكنها حادة، تخللت كل شيء بداخل الخيمة. وفي تلك اللحظة، بعدما أدرك أن تلك الرائحة المقبضة قد انتقلت من فتحتي أنفه إلى حلقه، استجمع شجاعته أخيرًا فقفز واقفًا على قدميه وركض خارجًا.

على ضوء الفجر الرمادي الذي تسلل من بين الأشجار رماديًا ولامعًا، بدا له المشهد واضحًا: انتصبت الخيمة وراءه منقوعة بماء الندى، ما يزال رماد النار الأسود دافئًا، البحيرة بيضاء أسفل طبقة من الضباب، من بينها برزت الجزر المظلمة كأشياء حيكت من الصوف، وفي المساحات المكشوفة من الحشائش ظهرت بقع من الثلج؛ كل شيء بارد في انتظار الشمس. رغم ذلك لم يكن هناك أي أثر للدليل

فعل الشيء الوحيد الذي كان ليفعله أي رجل عديم الخبرة في حيرة مشابهة؛ أخذ يركض في الأنحاء بلا أي إحساس بالاتجاهات، كطفلٍ مذعور، وهو يصرخ باسم الدليل بصوتٍ عالٍ، وبلا أي توقف:

"ديفاجو! ديفاجو! ديفاجو!" ورددت الأشجار صدى الاسم كلما صرخ به، ولكن بصوتٍ أنعم "ديفاجو! ديفاجو! ديفاجو!"

تتبع الأثر المرتسم على مسافة قريبة عبر بقع الثلج، ثم فقده مجددًا عندما أصبحت الأشجار كثيفة بشكلٍ لا يسمح بتراكم الثلج. صرخ حتى بح صوته، وحتى أصبح سماع صوته وسط هذا العالم المنصت بلا إجابة يثير الخوف في نفسه. ازدادت حيرته طرديًا مع عنف الجهد الذي يبذله، ووصلت حالته النفسية إلى مرحلة حادة من الاضطراب، حتى أصبح جهده المبذول يعمل عكس هدفه، وفي حالة من الإعياء التام أخذ طريق العودة إلى المخيم. ما تزال كيفية عثوره على طريق عودته لغزًا غير معروف، ولكن المؤكد أنه كان أمرًا بالغ الصعوبة، بعد عدد لا يحصى من الدلائل المخادعة؛ حتى رأى الخيمة البيضاء أخيرًا بين الأشجار، ووصل إلى مكانه الآمن.

لعب الإرهاق دوره في تهدئة أعصابه، فأشعل النار وأعد لنفسه وجبة الإفطار. أعاد له اللحم المقدد والقهوة الساخنة بعض العقل والحكم الصائب على الأمور، وأدرك أنه كان يتصرف كطفلٍ صغير. يستطيع الآن أن يواجه الموقف بشكلٍ أكثر عقلانية، وأحس ببعض الشجاعة تتدفق بشكلٍ غريزيٍ في عروقه كي تؤازره؛ قرر أن يقوم ببحث شامل قدر المستطاع، وإن فشل في ذلك فعليه أن يجد أفضل وسيلة ممكنة للعودة إلى المخيم الرئيسي كي يجلب المساعدة.

وهذا هو ما فعله؛ حاملًا معه بعض الطعام، وأعواد الكبريت، وبندقيته، وفأس صغير لحفر بعض العلامات على جذوع الأشجار من أجل العثور على طريق عودته، ثم بدأ رحلته. كانت الثامنة صباحًا عندما تحرك، والشمس تتألق فوق قمم الأشجار في سماءٍ صافية بلا سحب. ترك وراءه مذكرة مثبتة بمسمار إلى أحد الأعمدة الخشبية بجانب النار في حالة عودة ديفاجو بينما هو بعيد.

في تلك المرة ـ وبناءً على خطة محكمة ـ اتخذ اتجاهًا جديدًا، كي يمسح المنطقة على نطاقٍ واسع، فعاجلًا أو آجلًا سيتقاطع طريقه مع آثار أقدام الدليل، وقبل أن يقطع ربع ميل عثر على آثار حيوان ضخم فوق الثلج، وبجانبها ـ

بلا أي شك - آثار أقدام بشري، أقدام ديفاجو. أحس على الفور بارتياح غريزي، إلا أنه لم يستمر سوى لوقت قصير، فقد رأى في تلك العلامات التفسير البسيط للأمر كله؛ هذه العلامات - ولا شك - قد تُركت بواسطة ذكر موظ ضخم، قد ضل الطريق بسبب الرياح فاقتحم المخيم، مطلقًا - عندما أدرك خطأه - صرخته الغريبة التي نبهتهم وأيقظتهم. أما ديفاجو الذي يمتلك غريزة صيد تصل إلى درجة غير طبيعية من الكمال، قد شم رائحة الحيوان الوحشي تحملها إليه الرياح قبل ساعات، وأن إثارته واختفاؤه كانا بالطبع نتيجة لذلك.

ثم اختفى هذا التفسير المستحيل الذي خطر على باله، فقد أراه المنطق السليم بقسوة أن لا شيء من هذا حقيقي. لن يتصرف أي دليل - ناهيك عن كون هذا الدليل هو ديفاجو - بهذا الشكل اللاعقلاني، أن يخرج دون أن يحمل معه حتى بندقيته! أحس أن تلك القضية تتطلب تفسيرًا أكثر تعقيدًا عندما تذكر كل تفاصيلها؛ صرخة الهلع، اللغة المذهلة، الوجه الممتقع من الرعب عندما شم الرائحة الغريبة؛ هذا النحيب المكتوم في الظلام، وأيضًا هذا الإحساس الذي بدأ ينتابه مجددًا وهو نفوره من تلك المنطقة المحددة في تلك

الأنحاء.

بالإضافة إلى أنه بعدما فحص تلك الآثار عن قرب، أدرك أنها ليست آثار ذكر موظ على الإطلاق! لقد أراه هاتك من قبل شكل آثار حيوانات الموظ، الذكر والأنثى وصغيريهما، فقد رسمها بوضوح على لوح من لحاء شجر البتولا، وكانت تلك الآثار مختلفة تمامًا. كانت كبيرة، ودائرية، وعميقة، بلا أي أطراف حادة مدببة لحوافر، وأخذ يفكر لبضعة لحظات إن كانت آثار أقدام الدببة تشبه ذلك. لم يكن هناك أي حيوان آخر يستطيع التفكير فيه، حتى حيوانات الرنة لن تأتي لأقصى الجنوب في مثل هذا الموسم، وحتى لو أتت كانت لتترك آثار حوافر.

كانت تلك العلامات نذير شؤم، كتابة غامضة تركها على الثلج مخلوق غير معروف، استدرج إنسان بعيدًا عن الأمان، وعندما أضاف إلى ذلك في مخيلته هذا الصوت غير البشري الذي شق سكون الفجر، أحس بدوار مؤقت يعصف بعقله، ويقبض قلبه مجددًا بشكلٍ لا يمكن تصوره. أحس بكل علامات النذير تحاوطه، وعندما توقف لينحني على العلامات كي يفحصها عن قرب، استنشق أثر باهت لتلك الرائحة اللاذعة الحلوة، مما يجعله يعتدل واقفًا على الفور،

وهو يقاوم إحساس شديد بالغثيان.

ثم بدأت ذاكرته تمارس عليه بعض الحيل الخبيثة، تذكر فجأة تلك الأقدام العارية البارزة خارج الخيمة، ورأى هيئة الجسد وهو يُسحب ناحية باب الخيمة المفتوح، والرجل يصرخ خوفًا من شيء بالقرب من الباب عندما استيقظ بعد ذلك. أخذت تلك التفاصيل تطرق عقله المضطرب بإلحاح، بدت كأنها تجتمع من حوله في تلك المساحات العميقة للغابة الصامتة حيث تقف حشود الأشجار منتظرة، منصتة، تشاهده منتظرة لكي ترى ماذا سيفعل، كانت أشجار الغابة تطبق عليه.

وبنوع من العزيمة والشجاعة الحقيقية، تقدم سيمبسون للأمام، متتبعًا الآثار بقدر المستطاع، وهو يقاوم تلك المشاعر البغيضة التي تحاول إضعاف إرادته. حفر علامات على عدد لا يحصى من الأشجار في طريقه، وهو يشعر بالخوف من أن يضل طريق عودته، وهو يصيح من وقت لآخر باسم الدليل. ضربات الفأس المكتومة على جذوع الأشجار الضخمة، ونبرة صوته الغريبة، أصبحت بمرور الوقت أصواتًا يخاف من صنعها، ويخاف من سماعها، فهي تجذب الأنظار بلا انقطاع إلى موضعه بالضبط، وقد يكون

هناك من يتعقبه لصيده، بنفس الطريقة التي يتعقب هو بها شيئًا آخر.

بمجهود جبار، سحق تلك الأفكار لحظة بزوغها، أدرك أنها فقط البداية، بداية حيرة شيطانية من النوع الذي سرعان ما سيدمره.

*****

رغم أن الثلج لم يكن متواصلاً، بل يتكوم فقط في المواضع الخالية بعض الشيء من الأشجار، إلا أنه لم يجد صعوبة في تقصى أثر العلامات لبضعة أميال، فقد ارتسمت بخط مستقيم أينما أتاحت الأشجار ذلك. بدأت المسافة بين آثار الأقدام تصبح أكثر تباعدًا، حتى اتخذت نمطًا يستحيل تمامًا أن يقوم به أي حيوان عادي؛ أصبحت مثل وثبات طائرة ضخمة. واحدة من تلك المسافات التي قاسها بلغت ثمانية عشر قدمًا، لا شك أن هناك شيء خاطئ! فشل تمامًا في معرفة سبب عدم عثوره على أي علامة في الثلج بين كلتا النقطتين المتباعدتين. ما زاد من حيرته، وجعله يشعر بأن نظره بدأ يخدعه، هو أن خطوات ديفاجو ازدادت اتساعًا بنفس الطريقة، حتى أصبحت مماثلة في تلك المسافات غير المعقولة. بدا الأمر كأن هذا الوحش الضخم قد حمله

عبر تلك المسافات المذهلة، ورغم أن سيمبسون أطول منه أطرافًا، وجد نفسه لا يستطيع حتى بلوغ نصف هذه المسافة وهو يقفز أثناء عدوه.

كان مشهد تلك العلامات المترامية على مسافات شاسعة، وهو يركض بمحاذاتها جنبًا إلى جنب، هو مشهدًا صامتًا لرحلة مروعة يحثه فيها الرعب والجنون على التقدم للأمام بشكلٍ غير عقلاني لتحصيل نتائج مستحيلة. كان يشعر بالصدمة في أعماق روحه، كانت الآثار هي أبشع شيء تقع عليه عيناه، بدأ يتبعها بشكل آلي، يكاد يكون غير واعي للأمر، ومن وقت لآخر يلقي النظر من وراء أكتافه ليرى إن كان هناك شيء ضخم يتبعه هو أيضًا بخطوات عملاقة... وسرعان ما أدرك أنه يجهل تمامًا دلالة تلك الآثار، لقد خلفها على الثلج شيء جامح لا اسم له، يصحبه دومًا آثار أقدام الكندي الفرنسي الضئيل، دليله، رفيقه، الرجل الذي تشارك معه الخيمة منذ بضعة ساعات، يثرثر، ويضحك، وأحيانًا يغني بجانبه....

الفصل الخامس



بالنسبة لشاب عديم الخبرة في عمره، فإن ما جعله يحافظ على توازنه العقلي بطريقةٍ أو بأخرى أثناء تلك المغامرة ربما هو كونه أسكتلندي صعب المراس تربى بالفطرة على التفكير الحكيم وتأسس على المنطق. وإلا فإن الأمرين اللذين لاحظهما وهو يركض بشجاعة كانا كفيلين بجعله يعود أدراجه بلا تردد إلى الأمان النسبي بخيمته؛ ولكنهما عوضًا عن ذلك جعلاه يحكم قبضته على بندقيته، بينما يرسل قلبه - الذي تربى في الكنيسة - صلوات غير منطوقة تحلق بأجنحتها نحو السماوات. كلا الأثرين اللذين رآهما قد شهدا تغيرًا، وهذا التغيير الذي يتعلق خصوصًا بآثار أقدام الرجل، كان بنمط لا يمكن فهمه ... نمطًا مرعبًا.

في البداية لاحظ هذا التغير في الآثار الأكبر حجمًا، ولفترة طويلة لم يستطع تصديق عينيه. هل هي الأوراق المتطايرة مع الهواء هي ما تسببت في عكس هذا التأثير الغريب على الضوء والظلال، أم أن الثلج الجاف على أطراف الآثار هو

ما يلقي بالظلال ويسلط الضوء؟ أم أن تلك الآثار العظيمة قد بدأت بالفعل تكتسي بلونٍ باهت؟ فحول الحواف الدائرية لآثار أقدام الحيوان التي انغرست في الأرض، ظهر لون أحمر خفيف، بدا كأنه أثر للضوء لا لونًا حقيقيًا يصبغ الثلج ذاته. كل علامة حملت هذا اللون، وقد أخذت حدته النارية تتزايد باضطراد، وصبغ هذا اللون المشهد بلسمة شيطانية وحشية.

عندما لم يستطع تفسير هذا التغير بأي شكل، انتقل انتباهه إلى الآثار الأخرى ليكتشف أنها تتعرض للتغيير بدورها، إلا أن التغيير الذي انتابها كان أسوء بكثير، مشيرًا إلى احتمالات مروعة للغاية. فخلال المائة ياردة الأخيرة تغيرت تلك الآثار لتصبح مماثلة للأثر الأكبر، ورغم كونه تغيرًا تدريجيًا إلا أن العين لا يمكن أن تخطئه. كان من الصعب معرفة متى بدأ هذا التغير أول الأمر، إلا أن النتيجة لم تكن موضع شك. أصغر، أنحف، ولها شكل واضح، شكلت الآن نسخة دقيقة ومطابقة للآثار الأكبر بجانبها، مما يعني أن الأقدام التي تشكلها قد تغيرت بدورها، شيء ما في عقله تقلص في اشمئزاز ورعب عندما رآها.

أحس سيمبسون لأول مرة بالتردد، ثم أحس بالخجل من

ذعره وتردده، مما دفعه لأخذ عدة خطوات متعجلة للأمام؛ وفي اللحظة التالية توقف تمامًا عن الحركة في موضعه، فأمامه بالضبط اختفت كل آثار الأقدام، كلا الأثرين انقطعا بشكلٍ مفاجئ. ولمسافة مائة ياردة أو أكثر في كل الاتجاهات بحث بلا جدوى عن أي دليل يستطيع به تعقب آثارهما، ولكنه لم يعثر على أي شيء.

كانت الأشجار غليظة الجذع في تلك الأنحاء، كلها أشجار ضخمة، التنوب، والأرز، والأتسوجة؛ لا يوجد أي شجيرات صغيرة. وقف هناك، يتلفت حوله، ذاهلًا تمامًا، خاليًا من أي قوة، أو قدرة على التفكير الصائب. ثم عاد للانهماك في البحث مرارًا وتكرارًا، وكل مرة يصل إلى نفس النتيجة: لا شيء! فالأقدام التي انطبعت على سطح الثلج، قد غادرت الأرض على ما يبدو!

وفي تلك اللحظة من الإحباط والحيرة أحكم الرعب قبضته الباردة حول قلبه، وضغط بقوة على موضع ضعفه، ليفقده أعصابه بشكلٍ كامل. كان يخشى طيلة الوقت بشكلٍ خفي من أن تأتي هذه اللحظة، وها هي قد أتت؛ فقد سمع صوتًا من ناحية السماء، مكتومًا بفعل المسافة والارتفاع الكبير، واهنًا وناحبًا بشكلٍ غريب، صوت صراخ ديفاجو، الدليل.

سقط عليه الصوت من السماء الشتوية الساكنة بوقع لا يضاهى من الرعب والهلع، فسقطت بندقيته أرضًا، وتجمد لبرهة في موضعه بلا أي حركة، منصتًا كما لو كان ينصت بجسده كله، ثم تراجع للوراء مترنحًا حتى استند على أقرب شجره له، بروح مضطربة وعقلٍ عاجز عن التفكير. أحس في تلك اللحظةُ كأن روحه قد تخلخلت وانشطرت إلى شظايا متناثرة، وأن قلبه قد أفرغ نفسه فجأة من كل المشاعر - أيًا كانت - حتى جف تمامًا.

"آه! آه! يا لهذا الارتفاع المتقد! يا قدمايّ المحترقان! يا قدمايّ المحترقان بالنار...!" أتى هذا الصوت المتضرع باستغاثة لا توصف صارخًا في معاناة عظيمة من مسافة بعيدة في السماء، ثم تلاه صمت مطبق خيم على البرية والأشجار الساكنة.

وسيمبسون - بالكاد يعرف ما الذي يفعله - وجد نفسه يركض بجموح جيئةً وذهابًا، يبحث، يصرخ، يتعثر على جذور الأشجار والصخور، ويندفع في سعي محموم بلا جهة محددة بحثًا عن صديقه. ما يذكره من تلك الأحداث هو أنه تحت تأثير مشاعره اندفع مسرعًا، ذاهلًا، مشوشًا، يطارد العلامات الزائفة كما تطارد السفن التائهة الضوء. الرعب

في عينيه وقلبه وروحه، فهذا الصوت البعيد قد أعاد له الخوف الشديد من البرية، المسافات الشاسعة الجامحة، العزلة التي تفوي الإنسان بالفناء. عرف في تلك اللحظة ألم الإنسان الضائع اليائس بلا أملٍ في النجاة، ومعاناة الروح الكادحة في تلك العزلة النهائيّة. عبر أطلال أفكاره المظلمة، حلقت كشعلة من اللهب رؤيا عن ديفاجو، مُطاردًا للأبد، مُلاحقًا عبر الاتّساع السماوي لتلك الغابات العتيقة.

أحس أن دهورًا قد مضت قبل أن يجد في فوضى حواسه المضطربة شيئًا يستطيع أن يرتكز عليه ويستقر لدقيقة، ويفكر...

لم تتكرر الصرخة مرةً أخرى، كما لم يأتِ أي رد على ندائه الصارخ الأجش؛ لقد استدعت قوى البريةِ الغامضة ضحيتها حيث لا رجعة، وتشبثت به بقوة.

*****

استمر في البحث والنداء لساعات طوال فيما يبدو، فقد كان الوقت بعد الظهيرة بكثير عندما قرر أن يتخلى عن تلك المطاردة عديمة الجدوى ويعود إلى مخيمه على ضفاف بحيرة الجزر الخمسين، رغم ذلك كان مترددًا في

العودة، فقد كان صدى الصوت الصارخ يتردد في أذنيه. عثر على بندقيته والعلامات التي تدل على طريق عودته بصعوبة شديدة. ساعده التركيز المطلوب لتعقب العلامات المحفورة بشكلٍ سيئ على الأشجار، والجوع الذي يقرص معدته، على بقاءٍ عقله متماسكًا، أدرك أنه لولا ذلك لكان التشوش المؤقت الذي عاناه قد طال أمده حتى انتهى إلى وقوعِ كارثة محتومة؛ بدأ عقله يستقر تدريجيًا حتى استعاد شيئًا من توازنه المعهود.

أصبحت رحلته - مع اقتراب مغيب الشمس الذي صبغ السماء بلونِ الغسق الأحمر - مرهقة لعقله على نحو بائس؛ سمع صوت أقدام عديدة تلاحقه، أَصوات ضحكات وهمسٍ، رأى أشكالًا غير واضحة المعالم متوارية خلف الأشجار والصخور، ترسل لبعضها البعض إشارات ذات مغزى وهي تدبر للهجوم عليه لحظة مروره. جعلته دمدمات الرياح المخيفة يجفل وينصت؛ بدأ يتحرك خلسة، محاولًا أن يختفي كلما كان ذلك ممكنًا، وألا يصدر صوتًا قدر المستطاع؛ فظلال الأشجار التي كانت تمثل - حتى تلك اللحظة - موضعًا للحماية والاختباء، أصبحت الآن مصدرًا للتهديد والخطر، وأضفى عليها عقله الخائف بسبب غموضها عددًا كبيرًا من الاحتمالات المرعبة. أحس

بحضور قوي لنذير شؤم متوارٍ ومترصد له وراء تفاصيل كل ما قد حدث.

نجاحه في الخروج منتصرًا من هذا الموقف لهو أمر جدير بالإعجاب، فقد لا يخرج الرجال الأكثر منه نضجًا وحنكةً من مثل هذا الموقف العصيب بنجاح مماثل، لقد استطاع التعامل مع الأمر بشكلٍ مقبول على اعتبار كل شيء ممكن، وقد أثبت ذلك تصرفاتٍ المحكمة. لم يكن النوم مُرجحًا في تلك الليلة، والسفر في طريقٍ غير معلوم في الظلام هو أمر غير معقول بدوره؛ لذا قضى الليل كله مستيقظًا، ممسكًا ببندقيته في يده، جالسًا أمام النار التي لم يسمح لها أن تخمد للحظة واحدة. تلك اليقظة القاسية المليئة بالأفكار المثيرة للجنون تركت في روحه ندوبًا لن تندمل طيلة حياته؛ ولكنها حققت الهدف المرجو منها بنجاح، ومع أول بشائر الفجر بدأ في رحلة العودة الطويلة إلى المخيم الرئيسي كي يجلب المساعدة. ومثل المرة السابقة ترك ملاحظة مكتوبة تشرح غيابه، وتشير إلى الموضع الذي خبأ فيه كمية كبيرة من الطعام وأعواد الكبريت، رغم توقعه أن يدًا بشرية لن تقع على تلك الأشياء!

كيفية عثور سيمبسون على طريقه وحده عبر البحيرة والغابة

الفصل السادس

دخول عمه المفاجئ - بهيئته التي تنتمي إلى العالم التقليدي - إلى هذا العالم من السحر والرعب الذي طارده بلا انقطاع حتى الآن ليومين وليلتين أعطى القضية على الفور منظورًا جديدًا، سماع هذا الصوت الحاد: "يا إلهي! ما الذي حدث يا بني؟" وهذه اليد الجافة القوية التي تشبثت به، أعطياه مقياسًا جديدًا للحكم على الأمور. اجتاحه إحساس عام بالنفور، أدرك أنه قد أطلق العنان لنفسه بشكل سيء، حتى أنه أحس بشيءٍ من الخجل من نفسه، وأحس بالحكمة الفطرية التي عرف بها قومه ترده إلى صوابه.

وهذا يفسر - بلا شك - لما وجد صعوبة في أن يقص كل شيء للمجموعة وهم متحلقين حول النار، غير أنه قد أخبرهم بما يكفي ليتخذوا قرارًا فوريًا بإرسال مجموعة إنقاذ في أقرب وقت ممكن. ولكن على سيمبسون أولًا أن يتناول بعض الطعام، والأهم هو أن يحصل على بعض النوم لكي يصبح قادرًا على إرشادهم. اهتم د. كاثكارت بحالة الفتى بعناية شديدة أكثر مما أدركه مريضه، وأعطاه جرعة صغيرة من

المورفين، جعلته ينام لمدة ستة ساعات كالميت.

بدا واضحًا من خلال الوصف التي كتبه سيمبسون بعناية فيما بعد، أن التقرير الذي أعطاه لرفاقه الحائرين قد أهمل العديد من التفاصيل الحيوية الهامة. صرح لاحقًا أنه لم يجد الشجاعة كي يخبرهم بكل شيء في ظل وجود عمه الذي كان يحدق في وجهه باستمرار. وهكذا فإن كل ما فهمته مجموعة البحث من حديثه، هو أن ديفاجو قد أصابه في تلك الليلة مسًا حادًا من الجنون لا يمكن تفسيره، وأنه تخيل أن شخصًا ما أو شيئًا ما "يناديه"، وأنه ركض يلاحقه بين الأشجار بلا طعام أو بندقية، مما يعني أنه سيموت من البرد والجوع بطريقة بطيئة بشعة لو لم يعثروا عليه وينقذوه في الوقت المناسب، وعلى ذلك فإن "الوقت المناسب" تعني على الفور.

ومع ذلك لم يتحركوا إلا في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، تاركين بونك مسؤولًا عن المكان، مع التنبيه عليه بأن يكون الطعام والنار جاهزين دومًا. أحس سيمبسون أنه بإمكانه اخبار عمه قسط لا بأس به من تفاصيل القصة الحقيقية، ولكنها في حقيقة الأمر قد انتُزعت منه بنوع من الاستجواب الماكر. وما أن وصلوا إلى بداية الطريق حيث

وضع القارب في الاتجاه الذي عاد منه سيمبسون، كان قد أخبر عمه كيف أن ديفاجو قد تحدث بشكلٍ غامض عن "شيء ما يسمى ويندجو" ، كيف بكى أثناء نومه، وكيف تخيل رائحة غير معتادة حول المخيم، وأعراض أخرى للاهتياج العقلي. اعترف أيضًا بالتأثير المحير لـ "تلك الرائحة الاستثنائية" على نفسه، "لاذعة ونفاذة كرائحة الأسود." وعندما أصبح بينهم وبين بحيرة الجزر الخمسين مجرد ساعة، ترك لسانه يزل بحقيقة أخرى. أحس فيما بعد أنه اعتراف أحمق بحالته الهستيرية. أنه قد سمع الدليل المختفي يصرخ "من أجل المساعدة" . تغاضى عن ذكر الجمل المستخدمة كما سمعها، فهو لم يستطع حمل نفسه على ترديد هذه اللغة الشنيعة. كما أهمل أثناء وصفه للتغير التدريجي لآثار أقدام الرجل التي أصبحت نسخة مصغرة مشابهة لآثار الحيوان المغروسة في الثلج؛ حقيقة أن تلك الآثار قد تباعدت حتى أصبحت تقاس بمسافات لا تصدق. كان هناك صراع دائر في نفسه بين ما يجب عليه كشفه وما يجب عليه حجبه، ذكر . على سبيل المثال . اللون الأحمر الناري الباهت في الثلج، ولكنه أحجم عن قول إن الجسد والفراش قد تعرضا للجذب بشكلٍ ما من الخيمة...

النتيجة الواضحة التي توصل إليها د. كاتكارت ـ العالم النفسي البارع كما يحلو له أن يتخيل نفسه ـ أكدت له بشكلٍ واضح أن عقل سيمبسون ـ تحت تأثير العزلة والذهول والرعب ـ قد استسلم للأوهام التي استولت عليه. فبينما هو يمدح حسن تصرفه، استطاع في الوقت ذاته أن يحدد أين ومتى وكيف تعرض عقله للاختلال. لقد جعل ابن أخيه يرى نفسه أفضل مما كان بالإطراء عليه بشكلٍ حصيف، ولكن جعله أيضًا يرى نفسه أكثر حماقة مما كان بالتقليل من شأن الشواهد والبراهين. مثل غيره الكثير من الماديين، وقد اعتمد في تكوين رأيه على عدم معقولية المعلومات المقدمة له، فقد بدت لعقله الخاص غير مقبولة.

قال له: "هذه الأماكن المهجورة المنعزلة لها تأثير كبير على أي عقل مفعم بالخيال؛ لقد أثرت فيك تمامًا كما أثرت فيّ عندما كنتُ في مثل سنك. لا شك أن الحيوان الذي اقتحم مخيمكما الصغير كان من الموظ، فعندما يجأر الموظ بصوته يكون له أحيانًا رنة صوت غريبة. أما اللون الأحمر في آثار الأقدام هو ناتج بالتأكيد عن خللٍ في نظرك نابع عن إحساسك الشديد بالاضطراب العقلي. أما حجم واتساع الآثار فهذا أمر سنتأكد منه عندما نراه. لكن الصوت

المسموع الناتج عن الهذيان هو واحد من أكثر أشكال الأوهام الناتجة عن الاضطراب العقلي شيوعًا، والإحساس بالاضطراب في تلك الظروف هو أمر لا تُلام عليه يا ولدي العزيز، ودعني أضيف أنك قد أحسنت السيطرة على الأمر ببراعة في ظل تلك الظروف. فيما يتعلق بالمسائل الأخرى فأنا ملزم بالاعتراف أنك قد تصرفت بشجاعة مذهلة، فالرعب الذي يشعر به المرء عندما يجد نفسه ضائعًا في البراري هو أمر ليس بالهين، ولو كنت أنا في موضعك فلن أزعم أني كنت سأتصرف بربع حكمتك وحسن تصرفك. الأمر الوحيد العصي على التفسير بشكلٍ غريب هو تلك الرائحة الغريبة."

قال ابن أخيه: "أؤكد لك أنها جعلتني أشعر بالغثيان والدوار!"، فطريقة حديث عمه الهادئة كأنه يمتلك علمًا مطلقًا لمجرد أنه يعرف بعض المعلومات في علم النفس جعلته يشعر ببعض التحدي. من السهل على أي إنسان أن يفسر بمنتهى الحكمة تجربةً لم يَخُضْها بنفسه. نظر جانبه إلى ملامح الرجل الهادئ التي لا تظهر أي مشاعر وأنهى حديثه قائلًا: "لا أستطيع وصفها سوى بأنها رائحة كئيبة وفظيعة."

كان رده: "ما يدهشني هو أنها لم تبدو لك أسوء من ذلك في ظل تلك الظروف." أدرك سيمبسون أن تلك الكلمات الجافة تحوم ما بين الحقيقة، وبين مفهوم عمه عن "الحقيقة".

*****

وهكذا وصلوا أخيرًا إلى المخيم الصغير، حيث وجدوا الخيمة ما تزال منتصبة، وبقايا النيران، وقطعة الورقة المثبتة بمسمار إلى العمود الخشبي بجوارها، لم تمسها يد. ولكن مخبأ الطعام والكبريت الذي صنعته يد قليلة الخبرة قد عُثر عليه وفُتح، من قبل الفئران والسنجاب، أعواد الكبريت متناثرة حول الفتحة، ولكن الطعام قد أخذ كله حتى الفتات.

هتف هانك بصوت عالٍ كعادته: "حسنًا يا رفاق، هو ليس هنا، لا شك في ذلك! ولكن السؤال الآن هو أين ذهب؟" ثم أضاف "أقترح أن نبدأ في البحث عنه على الفور بكل ما في وسعنا!"

كآبة مصير ديفاجو المحتمل أصابت المجموعة بإحساس مخيف بخطورة الموقف، في اللحظة التي رأوا فيها العلامات المألوفة على وجوده قريب العهد؛ وخاصةً الخيمة وفراش أغصان البلسم مازال عليه آثار ثقل الجسد الذي نام عليه، التي تجعل حضوره يبدو قريبًا منهم أكثر. أما سيمبسون

وهو يشعر بشكل غامض كأن عالمه كله على المحك، بدأ يشرح بعض التفاصيل بصوت هامس. لقد أصبح أهدأ بكثير الآن، رغم أنه مرهق للغاية من الجهد المبذول في رحلاته المتعددة. طريقة عمه في شرح- أو بالأحرى تفنيد- التفاصيل التي ما تزال طازجة في ذاكرته المرتاعة، ساهمت بدورها في التخفيف من حدة مشاعره.

قال لرفيقيه وهو يشير ناحية الاتجاه الذي اختفى فيه الدليل ذاك الفجر الرمادي: "لقد ركض بهذا الاتجاه، مباشرةً إلى هناك عدوًا كالأيل، ما بين شجرتي البتولا والأتسوجة..."

تبادل هانك ود. كاثكارت النظرات، بينما أكمل الآخر الحديث، وشيء من الرعب السابق يتسلل إلى صوته: "وهناك على مسافة عدة أميال بخطٍ مستقيم تتبعت الأثر حتى... انقطع... فجأةً!"

قال هانك بطريقته الساخرة محاولاً التغلب حزنه العميق: "ولكن أين كنت حين سمعته يصرخ، وشممت تلك الرائحة النتنة، وبقية أحداث تلك الحفلة الملعونة."

أضاف د. كاثكارت بصوتٍ منخفض "وحيث تغلب عليك اضطرابك حتى بلغ مرحلةً خداع عقلك بالأوهام." ولكنه لم

ضئيلة للغاية، فلا شك أن الهذيان الذي استولى على عقله قد تضاعف، ومن المرجح أنه سيقتل نفسه لكي يعجل من هذا المصير القاسي. بل الأرجح أن النهاية قد وافته بالفعل وهم يتناقشون حول مصيره.

بناءً على اقتراح هانك ـ صديقه القديم ـ قرروا البقاء لوقت أطول، وتكريس اليوم التالي كله ـ من الفجر حتى حلول المساء ـ للبحث عنه بأفضل طريقة منظمة تخطر على أذهانهم. ناقشوا خطتهم بالتفصيل الدقيق؛ سيقسمون المنطقة فيما بينهم، وسيفعل كل واحد منهم ما يقدر على فعله. في تلك الأثناء تحدثوا عن الشكل الغريب الذي جعل رعب البرية يهجم على عقل الدليل التعيس. رغم أن هانك على دراية بالأسطورة بشكلٍ عام، ولكن بدا جليا أنه لم يحبذ هذا المنحنى الذي أخذته المحادثة. لم يخبرهما سوى بالقليل، ولكن هذا القليل كان كافيًا لإلقاء بعض الضوء على المسألة الغامضة؛ فقد أقر بأن هناك حكاية منتشرة في هذا الجزء من البلدة فيما معناه أن العديد من الهنود الحمر قد "رأوا الويندیجو" على ضفاف بحيرة الجزر الخمسين في خريف العام الماضي، وهذا هو سبب احجام ديفاجو عن الذهاب الصيد هناك. لا شك أن هانك يشعر أنه قد تسبب بشكلٍ ما في مصرع صديقه القديم بإقناعه بالذهاب. قال مفسرًا،

موجها الحديث لنفسه أكثر من غيره على ما يبدو: "عندما يفقد أحد الهنود الحمر عقله، دائمًا ما يُفَسَر الأمر بأنه قد رأى الويندیجو، وديفاجو المسكين كان يؤمن بتلك الخرافات من رأسه حتى أخمص قدميه...!"

بعدها بدأ سيمبسون - وقد انتابه إحساس عام بالتعاطف - يحكي مجددًا حكايته المدهشة كاملة، دون أن يهمل أي تفاصيل هذه المرة؛ وصف مشاعره الخاصة ومخاوفه التي سيطرت عليه، مهملاً فقط اللغة الغريبة التي سمعها.

قال الطبيب بعناد: "ولكن ديفاجو كان قد أخبرك بالفعل كل تفاصيل أسطورة الويندیجو، أعنى أنه قد تحدث أمامك عنها، وهكذا وضع في عقلك تلك الأفكار التي بالغ عقلك فيها لاحقًا تحت تأثير الاضطراب الشديد؟"

على الفور أعاد سيمبسون تكرار ما حدث بحذافيره، مصرحًا أن ديفاجو بالكاد قد ذكر الوحش. هو - سيمبسون - لم يكن يعرف أي شيء عن تلك الحكاية، وأنه - حسبما يتذكر - لم يقرأ عنها من قبل قط، حتى الكلمة ذاتها كانت غير مألوفة بالنسبة له.

هو كان يقول الحقيقة بالطبع، واضطر د. كاثكارت للاعتراف

بالطبيعة الاستثنائية لتلك المسألة المعقدة بأثرها، ولكنه لم يعترف من خلال الكلمات، بل من خلال تصرفاته؛ فقد أبقى ظهره ناحية شجرة متينة الجذع، وحرص على تقليب النار كلما أبدت أثرًا للخمود لكي تتقد وتتوهج، وكان أسرعهم لالتقاط أقل صوت في الليل المحيط بهم؛ كسمكة تقفز في الماء أو غصن يتكسر في الأجمة أو سقوط رقاقة ثلج فككتها الحرارة من أحد أفرع الأشجار فوقهم. تغيرت طبيعة صوته أيضًا بشكلٍ طفيف، أصبح خيفضًا ومفتقدًا لثقته المعهودة. خيم الخوفُ على المخيم الصغيرة، ورغم أن ثلاثتهم يودون بالتأكيد الحديث عن أي أمرٍ آخر، إلا أن الشيء الوحيد الذين بدوا قادرين على مناقشته، هو نفسه مصدر خوفهم. حاولوا عبثًا الحديث في أمورٍ أخرى؛ لم يكن هناك ما يقال. كان هانك الأكثر صراحة في المجموعة؛ يكاد لا يقول شيئًا، ولكنه لم يدر ظهره للظلمة ولو مرة واحدة، كان وجهه دومًا باتجاه الغابة، وعندما يحتاجون للحطب لم يذهب أبدًا أبعد مما هو مطلوب ليحضره.

الفصل السابع

غلفهم جدارٌ من الصمت، فرغم أن الثلج لم يكن كثيفًا، إلا أنه كان كافيًا لكتم أي ضجيج، وقد نشب الصقيع مخالبه في كل شيء. لم يُسمع أي صوت سوى حديثهم والدمدمة الخافتة للنار، لكن من آنٍ لآخر يمكن سماع شيء خافت كرفرفة جناحي عثة مرت من جانبهم عبر الهواء. لم يبدُ أحدهم متعجلًا للذهاب إلى الفراش، والساعات تمر ببطء مقتربة من منتصف الليل.

بعد فترة طويلة من الصمت، تحدث الدكتور، لا لرغبةٍ في الحديث ولكن لكسر الصمت: "الأسطورة تعتبر شكلًا رمزيًا، فالويندجو هو ببساطة تجسد لنداء البرية، الذي يدفع البعض للسعي وراء هلاكهم."

قال هانك على الفور: "هذا كل ما في الأمر، ولا تستطيع أن تخطئه عندما تسمعه، يكفي أنه يناديك باسمك."

تلا ذلك فترة أخرى من الصمت، ثم عاد د. كاثكارت للحديث في الموضوع المشؤوم بشكلٍ مفاجئ جعل رفيقيّه

يجفلان. مبديًا رأيه وهو ينظر من وراء كتفه ناحية الظلمة:

"هناك مغزى هام لتلك الحكاية الرمزية، يقولون إن الصوت يماثل أصوات الغابة؛ الرياح، وتساقط المياه، وأصوات الحيوانات، وما إلى ذلك. وما أن يَسمع الضحية ذلك الصوت فإنه بالطبع يذهب بلا عودة! يقال أيضًا أن نقاط ضعفه هي القدمان والعينان؛ القدمان كما نرى تمثلان الرغبة في التجول، والعينان تمثلان الرغبة في الجمال. الإنسان تعيس الحظ يتحرك بسرعة لا تُحتمَل تؤدي إلى نزيف الدم من عينيه، وحرق قدميه."

ظل د. كاثكارت محدقًا بتوتر في الظلمة المحيطة به وهو يتحدث، وصوته ينخفض حتى أصبح ذا نبرةٍ هامسة. أكمل قائلًا: "يقال إن الويندیجو يحرق قدميّ ضحيته بسبب الاحتكاك الناجم كما يبدو عن السرعة الهائلة، حتى تسقطان تمامًا وينبت موضعهما قدمان تشبهان قدميه."

استمع له سيمبسون في اندهاش مذعور؛ ولكن امتقاع وجه هانك هو ما أدهشه أكثر، كان ليغطي أذنيه ويغلق عينيه لو جرؤ على فعل ذلك.

جاء صوت هانك بطيئًا ثقيلًا: "إنه لا يبقى أيضًا بالقرب

من الأرض طيلة الوقت؛ إنه يحلق في السماء حتى لتظن أن النجوم قد أشعلت فيهما النيران، وأحيانا يقفز قفزات عالية من فوق قمم الأشجار، حاملًا رفيقه معه قبل أن يُسْقطه أرضًا، كما يُسْقِط العقاب السمكة الذي صادها ليقتلَها قبل أن يأكلها. وطَعامه من بين كل الأشياء في الغابة هو الطحالب." ضحك ضحكة قصيرة غير طبيعية، ثم أضاف بحماس وهو ينظر في وجهيّ رفيقيه: "الويندیجو يأكل الطحالب." ثم كرر بعد سلسلة طويلة من أغرب شتائم أمكنه ابتكارها: "آكل الطحالب."

فهم سيمبسون الآن الغرض الحقيقي وراء كل هذا الحديث، فما يخشاه هذان الرجلان القويان المحنكان أكثر من أي شيء آخر هو السكون؛ كان يتحدثان خوفًا من مرور الوقت، كان يتحدثان أيضًا خوفًا من الظلام، خوفًا من الرعب المطلق الذي يحاول اقتحام نفوسهم، خشية من وجودهم في أرض تكره وجودهم، خوفًا من كل شيء. في الواقع أكثر ما يخافان منه هو أن تسيطر عليهم الأفكار التي تبذر جذورها في أعماق روحيهما. هو نفسه قد اجتاز تلك التجربة في الليلة التي ظل فيها مستيقظًا في رعب، بل تفوق عليهما في هذا الصدد. لقد اكتسب نوعًا من المناعة. ولكن

هؤلاء الاثنين، الطبيب الساخر صاحب التحليلات النفسية، والحطّاب الصلد الصريح، جلس كلٌّ منهم يرتجف حتى أعماق كيتونته.

وهكذا مرت الساعات، يجلس ثلاثتهم بين فكي البرية، يتحدثون بصوتٍ هامس عن الأسطورة الشيطانية المرعبة، وإحساسٍ بالنفور يجتاح أنفسهم. لم تكن المنافسة عادلة بأخذ كل شيء في الاعتبار، فالبرية لديها بالفعل ميزة المبادرة بالهجوم الأول، مع كونهم أسرى بين قبضتها. مصير رفيقهم معلق فوق رؤوسهم بثقلٍ يزداد بمرور الوقت، حتى أصبحوا غير قادرين على احتماله.

كان هانك هو أول من تكلم بعد فترة من الصمت أطول من سابقيها حتى بدت غير قابلة للكسر، مطلقًا العنان لمشاعره المكبوتة بشكلٍ غير متوقع؛ بأن وثب فجأة واقفًا على قدميه مطلقًا أقوى صرخة تصم الآذان في ظلمة الليل. لم يستطع الاحتمال أكثر من ذلك، ولكي يجعل صرخته أكثر غرابة فقد رفع راحة يده أمام فمه وهو يهزها لكي تصبح الصرخة متقطعة.

نظر إلى الرجلين أسفله بضحكة غريبة متحدية وقال: "هذا من أجل ديفاجو؛ فأنا أعتقد أن صديقي القديم ليس بعيدًا

كثيرًا عنا في تلك اللحظة."

كان هناك عنف وطيش في أداء هانك، مما جعل سيمبسون بدوره يقفز واقفًا على قدميه في ذهول، وجعلت حتى الدكتور يترك الغليون يفلت من بين شفتيه. كان وجه هانك مخيفًا، ولكن كاثكارت أظهر ضعفًا مفاجئًا، وكأنه قد فقد السيطرة على عقله، ثم اشتعل في عينيه غضبٌ خاطف، ووقف بدوره - رغم طبيعته الفطرية في التأني والسيطرة على نفسه - ليواجه الرجل المتفعل. فما فعله غير مقبول، وأحمق، وخطير، وعليه أن يوقفه في مهده.

يمكن للمرء أن يضع نظريات عدة لتفسير ما حدث الدقيقة أو الدقيقتين التاليتين، لكن لا يمكنه الجزم بحقيقته على وجه التأكيد؛ ففي لحظة الصمت العميق التي تلت صوت هانك الهادر، كما لو كان ردًا عليه، قطع شيءٌ ما ظلمة السماء من فوق رؤوسهم بسرعة جنونية، شيء كبير الحجم بالضرورة فقد احتل جزءًا كبيرًا من السماء، حملت الرياح إلى مسامعهم بالأسفل صوتًا بشريًا خافتًا، يصرخ في نبرة من الألم والتوسل...

"آه! آه! يا لهذا الارتفاع المتقد! يا قدمايّ المحترقان! يا قدمايّ المحترقان بالنار...!"

تلفت هانك حوله ببلاهة فبدا كأنه طفل صغير، ووجهه شاحب شديد البياض، أما د. كاتكارت فأخذ يصرخ بكلمات مبهمة غير مفهومة، ملتفتًا بحركة غريزة ناحية الخيمة بحثًا عن الحماية، ثم توقف فجأة كأنه قد تجمد في موضعه. سيمبسون - وحده من بين ثلاثتهم - تمالك سيطرته على عقله قليلًا، رعبه ضاربًا في أعماق روحه يمنعه من المبادرة بأي ردة فعل، لقد سمع تلك الصرخة من قبل.

استدار مواجهًا رفيقيه المصدومين وقال بهدوء: "هذه بالضبط هي الصرخة التي سمعتها، مستخدمًا الكلمات نفسها."

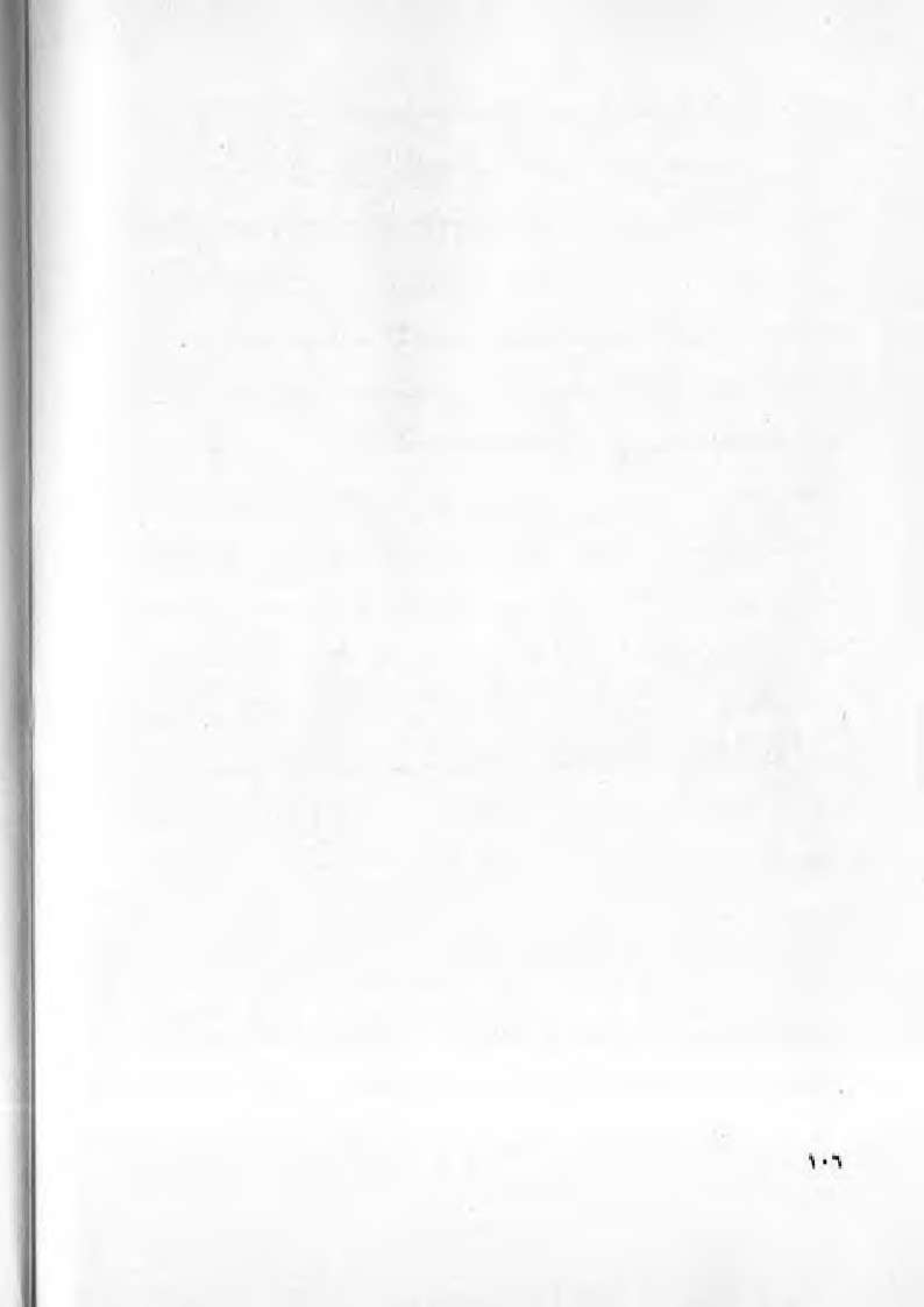
ثم رفع وجهه ناحية السماء وصاح بصوتٍ مرتفع: "ديفاجو! ديفاجو! اهبط إلينا! اهبط...!"

وقبل أن يجد أحدهم وقتًا ليتصرف بشكلٍ أو بآخر، أتاهم صوت شيء يهبط بثقل بين الأشجار، محطمًا الأغصان في طريقه، مستقرًا على الأرض الثلجية بصوت ارتطام مخيف كدوي الرعد.

قال هانك بصوتٍ هامس مختنق: "إنه هو، فليرحم الله أرواحنا!" ويده تتجه بشكل غريزي ناحية سكين الصيد

المعلقة بحزامه مضيفًا بضحكة رعب لا عقلانية: "إنه قادم من أجلنا!" صوت الثلج المتكسر أسفل خطوات أقدام ثقيلة أصبح مسموعًا بوضوح، يقترب عبر الظلمة ناحية دائرة الضوء.

أثناء اقتراب الخطوات منهم أقرب فأقرب بحركتها المترنحة، وقف ثلاثتهم حول النار، وقد شل الخوف حركتهم. هيئة د. كاثكارت بدأت تذبل، حتى عيناه توقفتا عن الحركة؛ هانك الذي يعاني من الصدمة، بدا كأنه على وشك القيام بفعلٍ عنيف، ولكنه لم يفعل شيئًا؛ بدا بدوره كأنه قد نُحت من حجر. بدوا كأطفال مذعورين، كان المشهد شنيعًا، خطوات الأقدام تقترب أكثر، رغم أن صاحبها لم يظهر بعد، مهشمة رقاقات الثلج في طريقها. بدا الأمر بلا نهاية، ممتدًا حتى ليبدو أنه غير حقيقي، تلك الخطوات الرتيبة القاسية، لقد حلت اللعنة.



الفصل الثامن

وأخيـرًا تبدى لهم ـ بمشقة ـ عبر ظلمة الليل، شكلًا غير واضح المعالم، يقترب من بقعة الضوء الممتزج ما بين النار والظلال، حتى أصبح بينه وبينهم مسافة عشرة أقدام، ثم توقف، محدقًا فيهم بنظرات ثابتة. ثم بدأ يتقدم ناحيتهم مجددًا بحركة متشنجة، كأنه شيء يتحرك بخيوط، مقتربًا منهم أكثر فأكثر، حتى غمره وهج النيران، أدركوا حينها أنه رجل، وأن هذا الرجل هو... ديفاجو.

في تلك اللحظة زحف الرعب بشكلٍ ملحوظ على وجوههم، ولمعت ثلاثة أزواج من العيون عبر الظلمة كأنهم يعبرون حدود العالم المألوف ويتطلعون نحو المجهول.

تقدم ديفاجو منهم، بخطوات مترنحة مترددة، كان يقترب منهم أولًا هم الثلاثة كمجموعة بشكلٍ مباشر، ثم التفت بحركة حادة وحدق النظر في وجه سيمبسون. ثم صدر صوتًا عبر شفتيه...

"ها أنا ذا يا زعيم سيمبسون، لقد سمعت أحدًا يناديني."

كان صوته ضعيفًا وجافًا، يأتي محشرجًا ولاهثا كأنه يبذل جهد هائل. "لقد قطعت رحلة كالجحيم." ثم ضحك وهو يدفع برأسه للأمام ناحية وجوههم.

ولكن تلك الضحكة حركت التروس الميكانيكية للتماثيل الشمعية ذات الوجوه البيضاء كالشمع. على الفور قفز هانك للأمام بسيل من الشتائم بالغة الغرابة حتى أن سيمبسون أحس أنها ليست كلمات إنجليزية على الإطلاق، ربما تكون من لغة الهنود الحمر أو أي لغة أخرى. أدرك فقط أن وجود هانك واندفاعه فيما بينهما كان مريحًا، مريحًا بشكلٍ غريب. د. كاثكارت الذي فكر بشكلٍ أكثر تأنٍ وروية، تقدمَ من ورائه، بخطواتٍ ثقيلة.

أحس سيمبسون أن كل شيء حدث أو قيل في الثواني القليلة التالية كان ضبابيًا، فكلتا العينين المحدقتين ناحيته عبر هذا الوجه الذابل الكريه من تلك المسافة القريبة أصابتا حواسه بالارتباك التام في بداية الأمر. كل ما فعله فحسب هو أن وقف ثابتًا في موضعه، دون أن يقول شيئًا، لم تكن له تلك الإرادة المتمرسة للرجلين الأكبر منه التي مكنتهما من التغلب على صدمتهما النفسية والمبادرة بالتصرف. كان يشاهدهما كأنه ينظر إلى ما يحدث عبر زجاج شبه مهشم،

كانت الرؤية مشوشة كأنه حلم. رغم السيل الجارف لجمل هانك عديمة المعنى، استطاع تذكر نبرة عمه الآمرة، يقول أشياء عديدة عن الطعام والشراب والدفء والبطانيات، وأشياء أخرى... علاوة على ذلك هبت نفحات من تلك الرائحة الغريبة النفاذة، الكريهة والمحببة بشكلٍ محير، لتهجم بعنف على فتحتي أنفه أثناء الأحداث التالية.

لم يكن سواه - رغم أنه أقل خبرة وبراعة مما يعتقدانه - من نطق تلك الجملة بشكلٍ غريزي ليخفف من حدة هذا الموقف المريع بإدخال الشكّ والارتياب في قلب كل واحدٍ منهما.

"أهذا هو أنت حقًا يا ديفاجو؟"

وعلى الفور صاح كاثكارت مجيبًا بصوتٍ مرتفع قبل أن يجد الآخر وقتًا لتحريك شفتيه:

"بالطبع هو! بالطبع هو! ألا تستطيع أن ترى أنه يكاد يموت من الإرهاق والبرد والخوف؟ أليس كل هذا كافيًا لتغيير الإنسان حتى لتصبح غير قادر على التعرف عليه؟" بدا أنه يقول ذلك في محاولة لإقناع نفسه أكثر من محاولة إقناع رفيقيه. تأكيده المبالغ فيه برهن على ذلك. كان يضع منديله على أنفه باستمرار أثناء حديثه، فقد انتشرت

الرائحة الغريبة في المخيم كله.

هذا الـ "ديفاجو" الذي جلس متكومًا بجانب النار، ملفوفًا بالبطانيات، يشرب المشروبات الساخنة، ويمسك الطعام بيديه الذابلتين، لا يشبه ديفاجو الذي رآه آخر مرة حيًا إلا كما يشبه رجل في الستين من عمره صورة فوتوجرافية له وهو في شبابه منذ أجيال عديدة. لا شيء يستطيع وصف تلك المهزلة المروعة، تلك المحاكاة الساخرة المتمثلة هناك بجانب النيران على شكل ديفاجو. مستعينًا ببقايا الذكريات المظلمة المخيفة، أقر سيمبسون بأن هذا الوجه يمثل حيوان أكثر منه إنسان، الملامح مرتسمة بنسب خاطئة، الجلد رخو ومتدلي، كما لو كان شيئًا ضغطه ومطه بشكلٍ غريب. ذكرته بتلك الوجوه البلاستيكية التي ينفخها الباعة المتجولون في شوارع لندن، فتتغير ملامحها أثناء نفخها، وأثناء انكماشها تصدر محاكاة لصوت باهت باك. كل من الوجه والصوت أوحيا بتشابه بغيض. بعد تلك الأحداث بفترة طويلة عندما حاول د. كاثكارت أن يصف ما لا يوصف، أكد أن كلا من الوجه والجسد قد بقيا لفترة طويلة في هواء متخلخل حيث لا يوجد وزن للهواء الجوي، حتى تداعت بنية الجسد وأصبحت مفككة.

بسبب الاضطراب الشديد الذي يعاني منه هانك وكم المشاعر المهتاجة التي لا يستطيع احتمالها أو فهمها، كان هو من وصل بالأمر إلى نقطة الصدام، وبدون أي مقدمات، ابتعد قليلاً من النيران، على الأرجح لكيلا يشتت الضوء الساطع نظره، وغطا عينيه للحظة بكلتا يديه، وصاح بصوتٍ عالٍ في مزيج معقد بشكلٍ مخيف من الغضب والتعاطف:

"أنت لست ديفاجو! أنت لست ديفاجو على الإطلاق! لا آبه البتة من أنت، ولكنك لست هو، لست صديقي لمدة عشرين عامًا!" ثم حدق ناحية الشيء المتكوم كأنه سيدمره بعينيه، مضيفًا بنبرة عنيفة من الرعب والاشمئزاز: "ولو كنت أنت هو فليرحم الله أرواحنا!"

كان من المستحيل إيقافه، فقد وقف يصيح كالممسوس؛ من المروع رؤيته، ومن المروع سماعه، لأنه كان ينطق بالحقيقة. بدأ يكرر كلماته بطرق مختلفة، كل واحدة أغرب من الأخرى، ورددت الغابة رجع كلماته. في نفس الوقت بدا كأنه يريد أن يندفع ناحية "الدخيل" فقد استمرت يده في الاقتراب بحركة مترددة ناحية سكين الصيد الطويلة المعلقة بحزامه.

ولكنه في النهاية لم يفعل شيء، واختُتمت عاصفته سريعًا

بسيلٍ من الدموع. اختنق صوت هانك فجأة، وانهار أرضًا، واستطاع كاثكارت إقناعه بطريقة أو بأخرى أن يذهب إلى الخيمة ليرقد ويريح جسده قليلًا. لقد استطاع مشاهدة بقية الأحداث من وراء قماش الخيمة، وجهه الشاحب المرتعب يختلس النظر عبر شق في باب الخيمة المسدل.

وقف د. كاثكارت وهالة من العزيمة تحيط به أمام هيئة ديفاجو المتكوم بجانب النار، يتبعه ابن أخيه الذي احتفظ حتى تلك اللحظة بشجاعته أفضل منهما، ونظر إلى وجهه مباشرةً وتحدث، في البدء كان صوته حازمًا:

"أخبرنا بما حدث يا ديفاجو؛ ولو قليلًا، حتى نستطيع أن نساعدك بأفضل طريقة ممكنة." كانت لهجته قوية، تكاد تكون آمرة، بل كانت بالفعل آمرة في تلك اللحظة، ولكن نبرتها تغيرت لاحقًا، فقد استدار الشيء ناحيته بوجه بائس ومريع للغاية، لا يكاد يكون بشريًا، حتى أن الدكتور انكمشَ للوراءِ مبتعدًا عنه كأنه يبتعد عن شيء ذي روح دنسة. قال سيمبسون - الذي كان يشاهد كل شيء عن قربٍ من ورائه - أنه بدا كقناع على وشك السقوط، وأنه سيتبدى لهما بوضوح من خلف هذا القناع شيء مظلم شيطاني، صاح كاثكارت بصوتٍ يتساوى فيه الرعب مع التوسل: "قل شيئًا يا رجل! قل

شيئًا! لا يستطيع أحدٌ منا التحمل أكثر من هذا...!" كانت صرخة نابعة عن الغريزة لا التفكير المنطقي.

أجابه ديفاجو بابتسامة شاحبة وهو يهمس بصوت رفيع ذابل كأنه يمر عبر شخص آخر: "لقد رأيت هذا الويندیجو العظيم.." ثم تشمم الهواء بأنفه تمامًا كالحيوان وأكمل "لقد صحبته أيضًا."

لا يمكن معرفة إن كان الشيطان المسكين ليكمل حديثه، أو إن كان د. كاثكارت ليستمر في استجوابه عديم الجدوى؛ فقد سُمِع هانك في تلك اللحظة يصرخ بأعلى صوت لديه من وراء قماش الخيمة الذي يخفي كل شيء ما عدا عيناه، لم يُسمع صراخ كهذا أبدًا.

"قدماه! يا إلهي! قدماه! أنظرا إلى قدميه المشوهتين!"

ارتبك ديفاجو في موضعه، وتحرك بطريقة جعلت قدميه لأول مرة في الضوء، وأصبح من الممكن ريتهما. رغم ذلك لم يكن سيمبسون ليرى بشكلٍ واضح ما رآه هانك، ولم يستطع هانك أبدًا وصف ما رآه، في تلك اللحظة قفز كاثكارت ناحيته كنمرٍ خائف، ولف أطراف البطانية حول قدميه بإحكام، وبسرعةٍ مذهلة حتى أن سيمبسون لم يستطع

أن يرى سوى لمحات خاطفة لشيء داكن غريب الشكل في الموضع الذي يجب أن تكون فيه أقدامه، ولكنه لم يكن واثقًا مما رآه.

وقبل أن يجد الدكتور وقتًا ليفعل شيء آخر، أو يجد سيمبسون حتى وقت للتفكير في سؤال، ناهيك عن طرحه، اعتدل ديفاجو واقفًا أمامهما، وهو يحاول حفظ توازنه بألم وصعوبة، وارتسم على وجهه البشع المشوه تعبير مظلم وخبيث، حتى أنه كان بالمعنى الحقيقي للكلمة، تعبيرًا وحشيًا.

قال بصوته المحشرج: "الآن لقد رأيتموهما، لقد رأيتم قدماي المحترقتين بالنيران، والآن ـ ما لم تستطيعوا إنقاذي ومنعي ـ لقد حان الوقت لكي ..."

قاطع حديثه البائس المتضرع صوتٌ يشبه هدير العاصفة قادمًا من ناحية البحيرة، اهتزت أغصان الأشجار المتشابكة من فوقهم، وانحنت ألسنة اللهب على إثر هبوب الرياح، وقطع المخيم الصغير شيءٌ، بضجيج مندفع مخيف، وبدا كأنه يحاصرهم من كل الجهات في الوقت ذاته. تخلص ديفاجو من البطانية الملتفة حول جسده، واستدار ناحية الغابة وراءه، وبنفس الحركة المترنحة التي أتى بها، رحل؛ رحل قبل أن يستطيع أحد تحريك ساكنٍ لإيقافه، رحل

بحركةٍ سريعة متخبطة لم تدع لهم مجالاً للتصرف. لقد ابتلعته الظلمة تمامًا؛ وفي غضون ثوانٍ قليلة، ومن فوق قمم الأشجار المتمايلة وهدير الرياح المفاجئة، سمع ثلاثتهم وهم يشاهدون ويسمعون بقلوب مرتعبة، صرخة بدت كأنها تتناهى إليهم من ارتفاع عظيم في السماء ومن مسافة بعيدة:

"آه! آه! يا لهذا الارتفاع، يا للسرعة المتقدة! آه! آه! يا قدمايّ المحترقان! يا قدمايّ المحترقان بالنار!"

تمالك د. كاثكارت نفسه على الفور، واستطاع أن يقيد حركة هانك بقوة ليمنعه من الركض بتهور نحو الأشجار.

صرخ هانك: "أتركني! أريد أن أعرف! أريد أن أرى! هذا ليس هو على الاطلاق، ولكنه شيطان تحول إلى هيئته...!"

بشكلٍ أو بآخر - أقر لاحقًا بأنه لم يعرف كيف استطاع فعل ذلك - نجح في ابقائه في الخيمة وقام بتهدئة روعه. وصل الدكتور - كما يبدو - إلى مرحلة استطاع فيها السيطرة على ردة فعله، وسمح لقوته الفطرية بالتغلب عليه. لقد استطاع السيطرة على هانك بشكلٍ مثير للإعجاب، ولكنه مر بوقت صعب مع ابن أخيه - الذي استطاع السيطرة عليه فيما بعد - ف

قد أدى به الضغط المتواصل إلى حالة من البكاء الهستيري، مما جعل من الضروري عزله وحده في سرير خاص بعيدًا عن هانك بأكبر قدر ممكن لكيلا يتأثر بحالته.

رقد هناك في المخيم المنعزل طيلة الليل وعقله مسكونًا بالأفكار المخيفة، يصرخ في طيّات بطانيته بجمل مروعة، وشذرات من جمل. هلوسة غامضة عن السرعة والارتفاع والنار مختلطة بشكل غريب مع جمل من الإنجيل يذكرها من دراسته: "بشر بأوجه مشوهة كلهم مشتعلين بالنيران يقتربون بخطوات فظيعة، فظيعة للغاية، ناحية المخيم!" ربما يتأوه لدقيقة، ثم يعتدل ليحدق ناحية الغابة، يرهف السمع، ويهمس: "كم من شيء مخيف في تلك البرية... وأقدامهم كلها مثل ذلك..." حتى يأتي عمه ويخفف من روعه ويجعله يفكر في أشياء أخرى.

كانت الهيستيريا مؤقته لحسن الحظ، كان النوم كفيلًا بعلاجها، كما كان كفيلًا بعلاج هانك.

ظل د. كاثكارت مستيقظًا حتى ظهرت أول بوادر ضوء الصباح بعد الساعة الخامسة بقليل، كان وجهه أبيض كالطباشير، وعيناه حمراوان بشكلٍ غريب، كان هناك صراع يدور بداخله طيلة الليلة ما بين روحه الملتاعة الخائفة

وإرادته للاستيقاظ طيلة تلك الساعات الصامتة، تلك كانت العلامات الخارجية على هذا الصراع.

مع حلول الفجر أشعل النار بنفسه، وأعد طعام الإفطار، وأيقظ الآخرين، وبحلول الساعة السابعة كانوا في طريق عودتهم إلى المخيم الرئيسي، ثلاثة رجال حائرين منكوبين، وقد حاول كل واحد منهم السيطرة بشكلٍ ما على مشاعره المضطربة حتى يصل مجددًا إلى حالة من الهدوء والاتزان.

سادت العالم البدائي ولم تختف تمامًا بعد. ما زال يذكر حتى هذا اليوم المصطلح الذي صكه بعدها بسنوات في إحدى محاضراته: "القوى الوحشية الهائلة الكامنة وراء أرواح البشر، ربما ليست شريرة في طبيعتها، ولكنها عدائية بشكل غريزي للبشرية طالما بقيت."

لم يناقش المسألة مع عمه بالتفصيل أبدًا، فالفارق في طبيعة التفكير بين العقلين يجعل الأمر من الصعوبة بمكان. مرة واحدة بعدها بسنوات عديدة شيء ما جعلهما يتطرقان إلى الموضوع، أو بالأحرى إحدى تفاصيل الموضوع.

سأله: "ألا تستطيع أن تخبرني كيف كان شكلهما؟" والإجابة رغم أنها كانت نابعة عن الحكمة، إلا أنها لم تكن مشجعة، "من الأفضل حقًا ألا تحاول معرفة أو اكتشاف ذلك."

قال ابن أخيه بإلحاح: "حسنًا، وماذا عن تلك الرائحة الغريبة؟ ما تفسيرك لها؟"

نظر إليه د. كاثكارت ورفع حاجبيه مجيبًا: "ليس من السهل تفسير الروائح كما نفسر الأصوات والمشاهد، لا أعرف عنها إلا قدر ما تعرفه أنت وربما أقل."

لم يكن طلق اللسان كعادته في تفسيره، هذا كل شيء.

*****

في نهاية اليوم الطويل وصل ثلاثتهم إلى الناحية الأخرى من البحيرة وهم يشعرون بالبرد والإعياء الشديد ويتضورون جوعًا. تحاملوا على أنفسهم سيرًا حتى وصلوا إلى المخيم الذي بدا للوهلة الأولى فارغًا؛ لم يكن هناك أثر للنار، ولم يسرع بونك للترحيب بهم. في ذلك الوقت كانت قدرتهم على الإحساس بالمشاعر كانت قد استُنزفت بما لا يسمح لهم بالإحساس بالمفاجأة أو الانزعاج؛ ولكن صرخة العاطفة العفوية التي اندفعت من بين شفتي هانك وهو يسرع أمامهما ناحية موضع النار، كانت نذيرًا بأن نهاية تلك المسالة الغريبة لم تحن بعد. لاحقًا اعترف كاثكارت وابن أخيه أنهما عندما رأيا هانك ينحني على ركبتيه في انفعال ويحتضن شيء منحني يتحرك بضعف بجانب بقايا الرماد، أنها أحسا في أعماق أنفسهما أن هذا الشيء هو ديفاجو، لقد عاد ديفاجو الحقيقي.

وبالفعل كان هو.

مرهقًا إلى حد الهزال، كان الفرنسي الكندي - أو ما تبقى منه - متخبطًا وسط الرماد، يحاول إشعال النار، جسده رابض، أصابعه الضعيفة تمتثل في وهن لعادته الغريزية التي اكتسبها طيلة حياته مستخدمًا أغصان الشجر والكبريت.

ولكن لم يعد لديه عقل ليوجه تلك العملية البسيطة، لقد طار منه عقله ولن يعود أبدًا، وطارت معه أيضًا ذاكرته، ليست ذاكرة الأحداث القريبة فقط، ولكن حياته كلها أصبحت صفحة بيضاء.

تلك المرة كان هو الرجل الحقيقي، ولكنه منكمش بشكلٍ مروع لا يُصدق، لم يرتسم على ملامحه أي تعبير من أيِّ نوع، الخوف منهم، الترحاب بهم، أو حتى التعرف عليهم. لم يبدُ عليه حتى أنه قد عرف من هذا الذي عانقه، أو الذي أطعمه وأدفئه وتحدث معه يطمئنه ويخفف عنه. بائس ومحطم بشكلٍ أبعد من قدرة أي إنسان على مساعدته، يطيع بخنوع أي أمرٍ يوجه له. إرادته التي تجعل منه شخصًا حرًا قد رحلت للأبد.

كان هذا بشكلٍ ما أسوء شيء رأوه حتى الآن، تلك الابتسامة البلهاء المرتسمة على وجهه وهو يخرج بقايا الطحالب من وجنتيه المتورمتين وهو يخبرهم أنه "آكل طحالب لعين" وتقيؤه المستمر لأبسط طعام يدخل جوفه، وأقسى ما في الأمر هذا صوته الطفولي البائس المتذمر وهو يخبرهم أنه قدميه تؤلمانه، "تحرقانه كالنيران" وكان هذا بديهيا عندما اختبرهما د. كاتكارت ووجد أنهما متجمدتان بشكلٍ

مخيف، أسفل عينيه كان هناك أثر باهت يدل على أنهما كانا ينزفان منذ وقتٍ قريب.

تفاصيل نجاته من التعرض لفترة طويلة لتلك الظروف القاسية، أو كيفية قطعه تلك المسافة الطويلة من مخيم لآخر، بالإضافة إلى سيره الطويلِ حول ضفة البحيرة لأنه لم يمتلك قارب، كل هذا بقي مجهولاً. وعند رحيل هذا الشتاء الذي شهد في بدايته تلك الحادثة الغريبة، رحل معه ديفاجو منكوب العقل والذاكرة والروح، لقد بقي حيًا لأسابيع قليلة.

ما أضافه بونك لاحقًا للحكاية لم يسهم في تفسير أي شيء، ما قاله هو أنه كان ينظف الأسماك بالقرب من ضفة البحيرة حوالي الساعة الخامسة مساءً، قبل عودة فرقة البحث بساعة، عندما رأى ظل الدليلِ يقطع طريقه بضعف باتجاه المخيم، تسبقه هبات خفيفة لرائحة غريبة نفاذة.

في تلك اللحظة ركض بونك العجوز ناحية بيته، قطع رحلته في ثلاثة أيام كما لا يستطيع أن يقطعها إلا رجل يحمل دماء الهنود الحمر، مطلقًا ساقيه للرياح بدافع من الرعب، لقد عرف ما يعنيه كل شيء. ديفاجو قد "رأى الويندیجو".

تمت

المترجم في سطور

أحمد صلاح المهدي، كاتب مصري، تخرج من كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة، وهو مؤلف وناقد ومترجم، متخصص في أدب الفانتازيا والخيال العلمي، وقصص الأطفال واليافعين، فكتب عدة مقالات أدبية ونقدية على المواقع العربية، ونشر عدد من قصص الأطفال في مجلة فارس المصرية، وله روايتان منشورتان في مصر بعنوان "ريم" و "ملاذ: مدينة البعث" ونشر قصة الأطفال "الأرنب الشجاع" عن دار أصالة بلبنان بالتعاون مع مؤسسة الفكر العربي، ونشر له ترجمة قصة الإله "العظيم بان" للكاتب آرثر ماكين التي تعد من كلاسيكيات الأدب الإنجليزي، وتعد ترجمته هي الترجمة العربية الأولى للرواية، كما قام بترجمة قصة الخيميائي لهوارد فيليبس

لافكرافت، وهي أول ما كتبه لافكرافت وأول ما نشره، وهي أيضًا الترجمة العربية الأولى للقصة. بالإضافة لترجمة رواية "التنين الأخير" وهي رواية مصورة صادرة عن دارك هورس كوميكس ونشرت على موقعيّ عرب كوميكس وبوابة الكوميكس في مصر. شارك مع مجموعة كلمات للنشر بالشارقة بترجمة ثلاثة أعمال كوميكس وهي "بطل الظل" و"اسم المستخدم إيفي" و"القلب والعقل".

الموقع الرسمي:

http://ahmedmahdi.net


إبداع
Ibdaa
للنشر والتوزيع والترجمة



الويندِيجو

لقد شاهدوا هناك في قلب البرية الجامحة شيئًا همجيًا وبدائيًا في جوهره، شيئًا تجلى بصورة مرعبة من تقدم البشرية، متحديًا تطور الحياة، ليبزغ لهم بدائيًا ووحشيًا. تجلى لهم بالأحرى كلمحة من عصور ما قبل التاريخ، عندما سكنت قلوب البشر خرافات المخلوقات العملاقة الغامضة، عندما كانت قوى الطبيعة ما تزال جامحة، القوى التي سادت العالم البدائي ولم تختف تمامًا بعد. ما زال يذكر حتى هذا اليوم المصطلح الذي صكه بعدها بسنوات في إحدى محاضراته: "القوى الوحشية الهائلة الكامنة وراء أرواح البشر، ربما ليست شريرة في طبيعتها، ولكنها عدائية بشكل غريزي للبشرية طالما بقيت."

ألجرنون بلاكوود

يعد الكاتب الإنجليزي ألجرنون هنري بلاكوود أحد آباء أدب الرعب بأعماله التي كتبها على مدار مسيرته الأدبية التي استمرت لأكثر من أربعة عقود، نشر خلالها مئات القصص القصيرة وعشرات الروايات التي ألهمت العديد من كتاب أدب الرعب المعاصرين أمثال لافكرافت، وآرثر ماكين، وتولكين، وقد عدّه لافكرافت في كتابه "الرعب الماورائي في الأدب" سيد الرعب لا منازع، وقال إن كتاباته تقع في أعمق نقطة في اللاوعي وتتجاوز الحاجز بين الواقع والخيال

تصميم الغلاف : أحمد الصباغ



